دكتور
عبد العظيم ابراهيم محمد المطعني

سماحة الإسلام

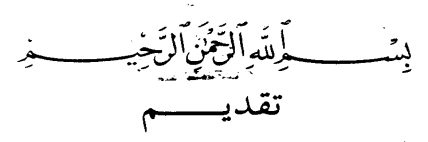
في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية

منهاجا ... وسيرة

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م



تقديـــــم

هذا الكتـاب ـ الذى بين يديك ـ يتصـدى لخصـوم الإسلام لدحض أخطر دعـوى من دعاويهم التى يروجونها ـ الآن ـ على نطاق واسع، بعـد أن كان أسلافهم من الكارهين لما أنزل الله يروّجـونها فى نطاق مـحدود، تلك الدعـوى هى أن الإسلام دين دمـوى وإرهابى عنيف، يصادر الحريات ولا يقبل من الناس إلا أن يُسْلِمُوا أو يُقَتَّلوا، وأنه لا يرى وجوداً فى الحـياة لغـير المسلم ؟! وأن الإسـلام طبع المسلمين على الـتوحش والبطش، فـصار الإسـلام بذلك هو عدو الإنسانية وحضاراتها، لذلك يجب دحره أو القضاء عليه؟ .

هذه الدعـاوى الجـوفـاء كرَّست أوروبـا ـ الآن ـ كل جـهودها لـترويجـهـا وإثارتهـا وبخاصة بعد سقوط الشيوعية وتفتيت كيانها لم تخلُ وسيلة من وسائل الدعاية الحديثة من الاشـتراك فـى هذه الحمـلات الضـارية ، التى يشـارك فـيهـا سيـاسيـو أوروبا ومـفكروها وصحفيوها وإعلاميوها ومؤتمراتها .

والهدف هو إما القضاء على الإسلام ، وإما تحجيمه فى نطاق ضيق ، وإما تشويه محياه الجمـيل الباسم ، حـتى لا يغزو العـالم ، ويملأ الفراغ الذى تعـيش فيـه أوروبا ـ الآن ـ منذ اتخذت الفكر المادى فلسفة وعقيدة، وسلوكاً .

والعجيب أن إعلام الغرب الذى يصف الإسـلام بهذه الحقارات ينسى أو يتناسى تاريخ الشيـوعيـة والصليبـية والصـهيـونية الملطخ بالدمـاء فى كل سطر من سطوره قديماً ووسـيطاً وحديثاً ، فالشيـوعـية كـانت عبـارة عن سيف مـصلت على رقاب الـناس ، غدر وخيـانة وفتك، والصلـيبيـة ترى محاكم التـفتـيش الفظيعة، هـى عنوان تاريخها ، والصـهيـونية بدأ أسلافها بقتل الأنبياء، وهذا لم يحدث فى التـاريخ النبوى الممتد عبر ألف سنة من تاريخهم القديم إلا على أيدى أسـلاف الصهيونيـة . ثم ختموا تاريخـهم القديم بالتآمر على قـتل آخر أنبيائهم عيـسى ابن مريم عليه السلام ، لولا أن نجاه الله منهم، ويكاد يجـمع مؤرخو الغرب على أن الحربين العالميتين : ـ الأولى والثانية ـ كانتا من تدابيرهم؛ لأنهم ـ كما يقول المثل:

« لا يصطادون إلا فى الماء العكر » ــ هذا هو تاريخ أوروبا وحلفائها، تتناساه هى الآن، لتتفرغ فى غير حياء ولا خجل لمحاربة الإسلام ، كما تتناسى أوروبا فظائعها وإجرامها وإرهابها الذى يجرى الآن ضد مسلمى البوسنة والهرسك، الذين لاذنب لهم سوى أنهم مسلمون : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إلا أن يُؤْمِنُواْ باللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (١) . ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إلا أن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللهُ .. ﴾ (٢) .

لقد سلطت أوروبا ــ ومعها عظام الشيوعية النخرة ــ حمقاها وسفهاءها من الصرب على إبادة المسلمين فى البلقان ، فارتكبوا من الجرائم والفظائع ما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الحروب ، وأوروبا تتابع وهى مثلجة الصدور، قريرة العيون، باسمة الثغور؛ لأن أرواح المسلمين تزهق ، ودماءهم تُسال ، وحرمات نسائهم وفتياتهم تُنتهك، وأراضيهم تُسلب ، ومقدساتهم تُداس بالأقدام ، ومعاهدهم ومساجدهم تُهدم ؟!

كل هذا تنساه أوروبا بلا حياء لتقول إن الإسلام هو دين الإرهاب والعنف ومصادرة الحريات وعدو الإنسانية جمعاء ؟

إن المثل العربى القديم الذى يقول: «رمتنى بدائها وانسلت» أى وصفتنى بالمرض الذى فيها وذهبت، هذا المثل يصدق كل الصدق على موقف أوروبا ــ الآن ــ من المسلمين والإسلام ، وما لذلك من سبب سوى الحقد والحسد ، وقديماً قال الشاعر فى مثل هذه الظواهر :

حسداً بَلَّغْنَهُ فى حقها   وقديماً كان فى الناس الحسد

إن تاريخ أوروبا وحاضرها معاً : إجرام فى إجرام، وعنف فى عنف ، ولو كان عندها ذرة من حياء ، أو مُسْكة من عقل لكفت عن بذاءاتها ضد الإسلام ، ولكن الحقد أعمى أبصارها، وأصم آذانها ، وحجَّر قلوبها فأخذت تهذى ضد الإسلام هذيان المخمور أو المحموم . ومَن سلب الله منه الحياء فلا يصدر عنه إلا الغرائب كما يقول المصطفى ﷺ : «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» .

* * *

(١) البروج : ٨   (٢) الحج : ٤٠

ومن الغريب حقاً أن فريقاً منا ـ نحن المسلمين والعرب ـ تَبَنَّوْا بكل جراءة ووقاحة ـ كراهية أوروبا للإسلام ، وأظهروا العداء له فى كل ما يقولون وما يذيعون وما يكتبون، وبخاصة عملاء الشيوعية وأبواق العلمانية ، ومنهم صليبيون معروفون ـ وفى مصر ـ حماها الله ـ نشط هؤلاء «الرفاق» نشاطاً ملحوظاً فى العامين الأخيرين (١٩٩٢ ـ ١٩٩٣) عقيب مواراة الشيوعية التراب. ماتت الشيوعية فى عقر دارها فى غير انتظار بعث، فأرادوا إحياءها فى مصر حفظها الله ، هذا وقد تهيأت لهم الفرص فى جميع المجالات :

الإعلام بعامة ، والصحافة بخاصة ، ومؤسسات التربية والتعليم ، ومدرجات الجامعة، وفى الفنون والآداب .

ونحن لا نرسل القول هنا جزافاً بغير دليل، فليرجع معى القارئ الكريم إلى عدد صحيفة الأهرام بتاريخ (٧/ ٤/ ١٩٩٣) ، وليقرأ فيه مقالاً منشوراً فى الصفحة (١٥) بعنوان : « كُتّاب سيدنا أم جامعة القاهرة » كتبه أحد أعلام الشيوعية. وها نحن أولاء ننقل فقرة واحدة نقلاً حرفياً من المقال ليرى القارئ بعينه ما فيها من « كفر صريح » وليس مقنعاً. يقول الكاتب وهو ساخط على جامعة القاهرة ؛ لأنها رفضت ترقية رفيق له إلى درجة أستاذ لضعف نتاجه علمياً وتجرئه على أصول الإسلام ، يقول الكاتب بالحرف الواحد من السطر رقم (٢٥) إلى السطر رقم (٣١) ما نصه :

« وأحسب أن هذا نوع مرعب من الأزمات . لماذا ؟ لأنه يدفع شيئاً فشيئاً بالجامعة إلى كيان محصَّن شكلياً من « كتَّاب سيدنا » القائم على آحادية الفكر ، والتلقين المبسط الزجرى الإرهابى ، الذى يُفَرِّخ لنا حفظة نصوص مصبوبة فى قوالب جامدة تخاصم العقل وحرية الفكر، وتجبن عن ارتياد آفاق الإبداع التى لا نهاية لها ...» .

عزيزى القارئ .. تأمل هذا الكلام جيداً، تر الكاتب قد شتم الله ـ تعالى عما يقولون علواً كبيراً ـ وشتم كتابه العزيز بكل وقاحة وجرأة .. كما سخر سخرية لاذعة من حُفَّاظ كتاب الله ؟! .

اسأل نفسك ما المراد من النصوص المصبوبة فى قوالب جامدة ؟!
وما المراد من النصوص التى تخاصم العقل وحرية الفكر ؟!

وما المراد من النصوص «الجبانة» التى تجبن عن ارتياد آفاق الإبداع؟!

إنه القرآن ـ والقرآن وحده ـ هو المراد من هذه النصوص عند الكاتب قاتله الله .

وإذا كان القرآن جباناً ـ حاش للّه ـ فالقرآن هو كلام الله . والكلام صفة المتكلم ، وهذا يقتضى أن الكاتب شتم الذات الإلهية بالـ .... ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ومما يوقع فى الحيرة أن هذا الكاتب بعد شهر واحد من نشر «كفرياته» هذه كرمته الدولة فى عيد الإعلاميين (٢٧ مايو ١٩٩٣) ومنحته وسام تقدير فى الحفل الذى رأسه رئيس الجمهورية وكبار رجال الدولة ؟!

فعلام كافأنا هذا الكاتب يا ترى ؟ ألأنه تطاول على الله وكتابه العزيز ؟! أأصبحنا ضعيفى الذاكرة والوعى إلى هذا الحد ؟ فلم نميز بين الحق والباطل ؟ أم أن الأمر كما قال الشاعر: « وعين الرضا عن كل عيب كليلة » ؟!

كان من المفروض على مصر المسلمة ـ إن لم يكن بمقتضى إسلامها ، فبمقتضى دستورها ـ أن تقدم هذا الرجل إلى محاكمة عادلة عاجلة، لا أن تشد على يديه وتقول له : المزيد من الكفريات .. المزيد ؟!

وفى نفس الحفل الإعلامى كرمت الدولة كُتَّاباً آخرين معروفين بالعداء الحاقد على الإسلام .

ووصف القرآن بالتخلف والجمود والإرهاب أمر متفق عليه بين هؤلاء الرفاق المكرَّمين من الدولة وغير المكرَّمين، فى نفس الوقت الذى تشكو فيه مصر من « التطرف » ، وهذا التكريم غير الشرعى يزيد التطرف ضراوة واشتعالاً، فكانت مصالح مصر العليا تقتضى أن لا يكون شيء من هذا أبداً ، ومثلما تهجم هذا الكاتب على كتاب الله العزيز ، تهجم رفيق آخر منهم على الكتاب العزيز وعلى سُنَّة رسوله الكريم ، وهو رجل يتربع على عرش أخطر وزارة فى مصر، وزارة التربية والتعليم حيث وصف هذا « الوزير » ما جاء فى عذاب القبر بأنه : «خزعبلات » ؟! يعني : خرافات ؟!

وهذا تكذيب صريح لما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾[1] أى لما يرونه من العذاب . ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيّاً ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوْاْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [2].

ويقول الصادق المصدوق ﷺ : « القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار » .

ومرَّ النبى ﷺ على قبرين فقال فى صاحبيهما : « إنهما ليعذبان، وما يعذبان فى كبير . . . » .

أمع هذا يقال: أنَّ ما جاء فى عذاب القبر خزعبلات وخرافات وتنشر هذا الكلام صحيفة من أعرق الصحف المصرية وأوسعها انتشاراً ؟!

هذا هو الوضع الراهن للشيوعيين « الأيتام » فى مصر الآن ، إنهم يتمتعون بحريات أكثر من أى عهد مضى ، وهذا من شأنه أن يترك الحليم حيران ، وليس الأمر مقصوراً على مصر وحدها ، فما أكثر الأقطار الإسلامية التى اجتاحها الفكر الإلحادى المدمر ، وقاد المسيرة فيها ردحاً من الزمن ولا يزال ؟!

والجماهير المسلمة شُغلت عما يراد بها ، ولها ، بمشكلات الحياة اليومية من جهة ، وبالخوف والتخويف من جهة أخرى ، حتى أصبح لسان حال كل فرد منهم أن يقول لنفسه : انجُ يا سعد، فقد هلك سعيد ؟ هذا هو الواقع المؤسف الذى تعبأ فيه كل الجهود عالمياً ومحلياً لتقليص ظل الإسلام، والورقة الرابحة فى أيدى خصوم الإسلام ــ الآن ــ هو وصف الإسلام بالإرهاب الفكرى والمادي ، وكبت الحريات . ونحن فى هذه الدراسة التى ترجمنا لها بـ : « سماحة الإسلام منهجاً وسيرة » نتصدى لهذه الفرية موضوعياً ، ونفند شبهات القائلين بها شبهة شبهة، سواء أكان القائل الغرب أو عملاءه من الشرق.

---

(١) الممتحنة : ١٣ (٢) غافر : ٤٦

ومن البديه أن مَن أراد أن يحكم على الإسلام بشيء أن يستمد حكمه من ثلاثة مصادر: القرآن نفسه ـ ثم سنة رسوله الصحيحة السند إليه ـ ثم التطبيق العملى الوثيق الصلة بالإسلام .

أما الأعمال التى لا صلة لها بالإسلام من قريب أو بعيد فيجب أن تُستبعد تماماً من هذا المجال.

وتوخياً للإيجاز المقنع قصرنا الدراسة على عصر النبوة وحده من خلال المصادر الثلاثة التى تقدم ذكرها. ولذلك جاءت موضوعات الدراسة موزعة على المنهج الآتى :

المرحلة الأولى للدعوة : الدعوة إلى الإسلام بالوسائل السلمية .

* **الفصل الأول** : سماحة الدعوة فى القرآن الكريم .

المبحث الأول : سماحة الدعوة فى القرآن الكريم فى العهد المكي .

المبحث الثاني : سماحة الدعوة فى القرآن الكريم فى العهد المدني .

* **الفصل الثاني** : سماحة الدعوة فى القرآن الكريم فى حرية الاعتقاد .

* **الفصل الثالث** : سماحة الدعوة فى النشاط النبوي .

المبحث الأول : سماحة الدعوة فى السنة القولية .

المبحث الثاني : سماحة الدعوة فى السنة العملية .

المرحلة الثانية للدعوة : مشروعية القتال وضوابطه .

* الفصل الأول : متى ولماذا شرع القتال فى الإسلام ؟

* الفصل الثاني : ضوابط ممارسة القتال وأخلاقياته .

* الفصل الثالث : حقيقة العلاقة بين المسلمين وغيرهم .

وفى كل هذه الموضوعات راعينا أمرين :

الأول : التركيز والإيجاز .

الثاني : وضوح الدليل على سماحة الإسلام وقوة الاستدلال عليها .. والله نسأل حسن التوفيق .

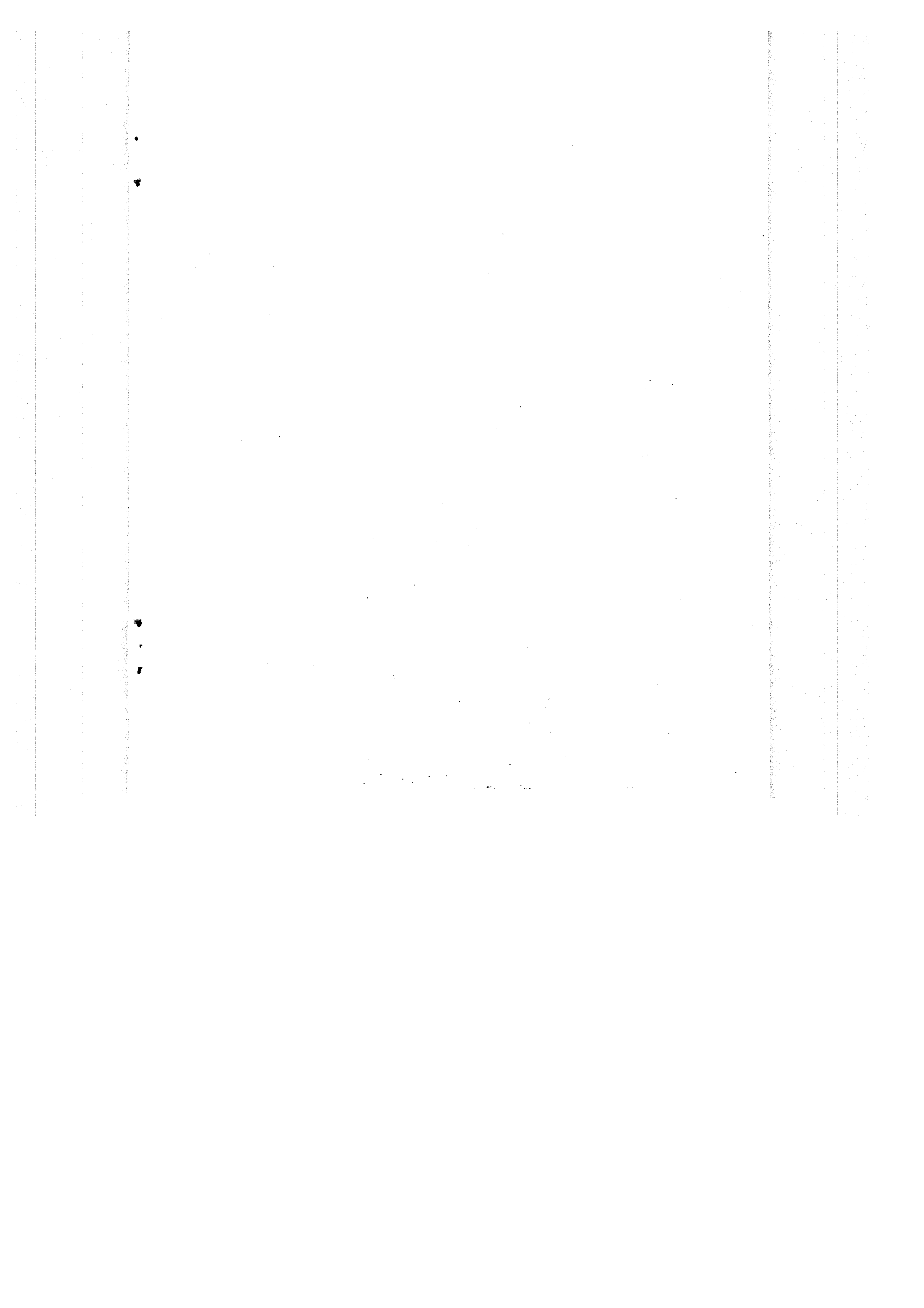
مكة المكرمة ـ حي العزيزية :

مساء الجمعة ٩/١١/ ١٤١٣ هـ (الموافق ٢٩/ ٤/ ١٩٩٣م) .

د . عبد العظيم المطعني

عفا الله عنه

* * *



المرحلـة الأولى للدعـوة الإسلاميـــة

الدعوة إلى الإسلام بالوسائل السلمية

* سماحة الدعوة في القرآن الكريم .
* سماحة الدعوة ـ في القرآن الكريم ـ في حرية الاعتقاد .
* سماحة الدعوة في النشاط النبوي .

* * *



﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

(النحل : ١٢٥)

* * *

الفصل الأول

سماحة الدعوة فى القرآن الكريم

المبحث الأول ـ سماحة الدعوة فى القرآن الكريم فى العهد المكى :

واجه القرآن الكريم فى مكة قبل الهجرة قضايا شديدة الخطورة ، بعضها يتعلق بأصول الإيمان ، وبعضها يتعلق بالسلوك والأخلاق .

وفى السطور الآتية نبين سماحة الإسلام من خلال قضيتين من قضايا أصول الإيمان ، وهما :

(أ) قضية التوحيدة .

(ب) قضية البعث .

وهما القضيتان اللتان أولاهما القرآن الحكيم اهتماماً كبيراً ، لما كان عليه العرب حينذاك من شرك ووثنية وإنكار للحياة الآخرة ، ولما أثاروه من جدل حول هاتين القضيتين. كما سنرى فى حديث القرآن الأمين عنهما .

* * *

القضية الأولى : قضية التوحيد

قضية التوحيد هى المحور الأساسى الذى ركزت عليه الدعوة القرآنية قبل الهجرة ، وكان لابد من ذلك فى بدء المواجهة ؛ لأن القوم فى مكة ، كانوا وثنيين يعبدون الأصنام والأوثان آلهة من دون الله ، وقد زين لهم الشيطان سوء عملهم فرأوه حسناً .

وحينما واجه القرآن هذه الظاهرة طوّقها من كل جهة ، ولم يدع وسيلة من وسائل الإقناع السلمى إلا وقد استثمرها فى خطاب القوم، ونصب لهم من الدلائل والبراهين ما هو كفيل بتحقيق الإيمان بالله الخالق البارئ، المبدئ المعيد، لولا العناد والمكابرة والعزة بالإثم، وهى رواسب شيطانية حجبت عن القوم المبادرة إلى الهدى طوال المدة التى قضاها صاحب الدعوة ﷺ بين أظهرهم من بدء الوحى حتى الهجرة المباركة إلى مدينة يثرب على مدى ثلاثة عشر عاماً .

فقد دعاهم للنظر والتأمل فى الكون: سمائه وأرضه وبحاره وما بين الأرض والسماء ، ولفت أنظارهم لعجائب خلقه فى الحيوان والنبات ، وفى أنفسهم ، وضرب لهم الأمثال الكاشفة ، وساق لهم القصص الصادق ، وجادل وحاور، وبشّر وأنذر ، ووعد وأوعد، وكشف لهم الحقائق ناصعة جلية ، وأزال ما يعتلق فى أنفسهم من شبهات فى أساليب من القول واضحة، وأفانين من البيان مؤثرة فى غير التواء ولا غموض، ليحيا مَن حيٍّ عن بينة ويهلك مَن هلك عن بينه، وما ربك بظلام للعبيد .

والحديث عن كل ذلك طويل وطويل. فلنأخذ بذكر ما قلّ ودَلّ .

* * *

نمـاذج المواجهة : تعجب المشركين من عقيدة التوحيد

النموذج الأول : من سورة (ص) :

حكت سورة «ص» ـ وهى مكية ـ تعجب المشركين من عقيدة التوحيد فى قوله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[1] .

وبنوا إنكارهم وتعجبهم من عقيدة الإله الواحد (الله) على شبهتين :

أولاهمـا: أنهم لم يسمعوا بهذه العقيدة كما حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ .. ﴾ [2] يقصدون ما كان يروجه النصارى من عقيدة التثليث ، وملّة عيسى هى الملة الآخرة .

والأخرى : إنكار أن يكون الله قد خص محمداً ﷺ بإنزال القرآن عليه من دونهم، وهم ـ فى نظرهم ـ أولى منه بهذا الفضل : ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا.. ﴾ [3] ؟!

* المواجهـــة :

من منهج القرآن الأمين أن يذكر شبهات الخصوم على الوجه الذى أوردوها فيه بكل أمانة وصدق. ثم يكر عليها واحدة واحدة ، فلا يبقى لها على أثر فى ميدان الجدل والحوار، وهنا تراه قد ذكر قُطب مقولتهم كما رددوها. ثم جاء دور الرد عليها على النسق الآتي : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى .... ﴾ [4] .

انتقل من تصوير مقولتهم فى إنكار عقيدة التوحيد والتعجب منها ، وفى إنكار أن يكون صاحب الدعوة أهلاً لنزول القرآن عليه من دونهم ؛ لأنهم ـ حسب زعمهم ـ أحق منه بهذا لو كان فعلاً أنّ ما يقوله وحى من عند الله .

---

(١) سورة ص : ٤ ـ٥
(٢) سورة ص : ٧
(٣) سورة ص : ٨
(٤) سورة ص : ٨

فبيَّن فى صدر المواجهة أن المسألة ليست إنكاراً للتوحيد ولاختصاص صاحب الدعوة بالوحى فحسب، بل الواقع أنهم فى شك من قضية الوحى جملة. وأن السبب فى هذا الشك واستمراره هو إمهال الله لهم، حيث لم يعجل لهم العذاب ..

ومع هذا الإمهال فإن العذاب نازل بهم ــ لا محالة ــ ؛ لأن « لمَّا » فى قوله تعالى : ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ (١) تأتى لنفى الفعل بعدها فى الحال وتؤذن بقرب وقوعه: أى لما يذوقوا عذابى وسيذوقوه قريباً ، كما قال الشاعر :

أشواقاً ولمَّا تمض لى غير ليلة　　　فكيف إذا جدَّ المسير بنا شهرًا

يتعجب من شدة الشوق لمفارقته أهله قبل أن تنقضى الليلة الأولى من رحيله عنهم ، فكيف الحال إذا بلغ الرحيل شهراً .

* *

* الخطوة الثانية فى المواجهة :

ثم انتقل البيان القرآنى إلى الخطوة الثانية من المواجهة فى الآيتين الآتيتين :

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأَسْبَابِ ﴾ (٢) .

لما أنكر المشركون مبدأ التوحيد، وتعجبوا منه، وجعلوا الأصل هو التعدد فى الآلهة. ثم أنكروا أن يكون محمد ﷺ هو المختار لتلقى الوحى وتبليغه ، لما فعلوا ذلك فقد زجوا بأنفسهم فى مجال ليسوا هم أهله وتطاولوا فى الدعوى وأنزلوا أنفسهم فى غير منازلها ، لذلك واجه القرآن هذا الغرور وتلك الجهالة، فتساءل منكراً عليهم ما ادعوه لأنفسهم :

هل هم يملكون خزائن رحمة الله العزيز الذى لا يُقهر، الوهاب بفيوض النعم صغيرها وكبيرها ــ ومنها النبوة التى آثر بها عبده ورسوله محمداً ﷺ ؟ إن كان عندهم تلك الخزائن فليوزعوا رحمة الله ونبواته تبعاً لأهوائهم وتصوراتهم ؟

---

(١) سورة ص : ٨　　　(٢) سورة ص : ٩ ــ ١٠

بل هل هم يملكون السموات والأرض وما بينهما ؟ إن كان لهم ذلك فليأخذوا فى أسباب الرقى والصعود إلى السماء ويديروا شئون العالم كما يشاءون ؟ ولكنهم ــ كما علموا ــ من أنفسهم أنهم مخلوقون مقهورون لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، نواصيهم بيد خالقهم يصنع بهم ما يريد، ويقضى فيهم بما يشاء ، ولا راد لما أراد، ولا دافع لما قضى وأبرم ، فعلام هذا الجهل والتطاول ؟

* *

* الخطوة الثالثـــة :

أمـا الخطوة الثالثة فى المواجهة فهى قوله تعالى : ﴿ جُنـــدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ [١] .

أى أنهم جند قد تحزَّبوا على صاحب الدعوة . وسوف تحل بهم الهزيمة لا محالة . وقد تضمن هذا الخبر الصادق وَعْداً ووعيداً :

الوعد لصاحب الدعوة بأن الله ناصره وهازمهم . والوعيد للمشركين: بأن مصيرهم الهلاك ما لم يؤمنوا ويذعنوا للحق الذى يدعو إليه محمد ﷺ .

* *

* الخطوة الرابعـــة :

بقيت خطوة رابعة فى المواجهة ، انتهى فيها القرآن إلى غاية النصح لهم ، وأزاح ما بقى من عوائق تحول بينهم وبين الانصياع للحق .

ذلك أنهم كانوا ــ فى بدء الدعوة ــ يستكثرون أنفسهم، ويستقلون محمداً ﷺ، ويقولون : ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [٢] .

ولما قال الوحى عنهم: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ [٣] فإن شعورهم

---

(١) سورة ص : ١١ (٢) القمر : ٤٤

(٣) سورة ص : ١١

بالكثرة والتجمع يوحى إليهم ـ مع إغراء الشيطان ـ بأنهم لن يُغلبوا أمام محمد ﷺ ، ولم يكن معه إلا القليل من الأتباع . فأزاح عنهم القرآن هذا الوهم بأدلة من التاريخ النبوى يعرفونها : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ، أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ * إن كُلٌّ إلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾[1] .

أشار القرآن الأمين إلى مهلك ستة أقوام كذّبوا الرسل فحق عليهم العقاب العادل من الله، ولم ينفعهم تجمعهم وكونهم أحزاباً من حلول نقمة الله بهم. ومشركو مكة إذا استمروا فى تكذيبهم بالحق فسيحل بهم ما حل بأسلافهم فى الكفر والعناد، وإن الله لبالمرصاد .

فى هذا البيان الواضح، والحقائق الناصعة إرشاد ونصح أمين وضعه الله أمام خصوم الدعوة، وهداهم النجدين: طريق النجاة، وطريق الهلاك. فإذا رجعوا إلى أنفسهم وتدبروا واطّرحوا أسباب العناد هُدُوا ونَجَوْا. وإن بقوا على كبريائهم وجهلهم فما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ؟

وكان هدف الدعوة ـ هنا ـ من الوسائل السلمية التى جعلتها مادة للحوار لحمة وسدى: إقناع خصوم الدعوة بأن ما هم عليه باطل وضلال . وأن الحق إنما هو فيما يدعوهم إليه الوحى الأمين على لسان الرسول الكريم، الذى رموه زوراً وبهتاناً ـ بأنه ساحر كذاب ؟!

* * *

---

(١) سورة ص : ١٢ ـ ١٤

الأوتاد: الجيوش العظيمة كانت لفرعون ـ وأصحاب الأيكة : قوم أرسل إليهم شعيب غير أهل مدين. والأيكة: الشجر الملتف .

عجز الأصنـــام

النموذج الثاني ـ من سورة الأحقاف :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوات ، ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّن عِلْمٍ إِن كُنـــتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَــامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْــدَاءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ (١) .

الشرك : نوع من الكفر، والمشرك ـ مع كفره ـ يؤمن بالله ، ولكنه يجعل له أنداداً من خلقه، ونلحظ أن القرآن لم يجادل مشركى مكة فى أصل الإيمان : أى فى هل الله موجود أم غير موجود ، وإنما جادلهم فى عقيدة التوحيد : أى كون الله واحداً لا شريك له فى الوجود ، لا على معنى أن فى الوجود آلهة أخرى ولكنها ليست شريكة لله ، بل على نفى أن يكون فى الوجود إله أو آلهة أخرى إلا الله الواحد القهار ولما كان خصوم الدعوة فى مكة يؤمنون بوجود الله أصلاً، ويدعون أن معه آلهة أخرى ، أكثر القرآن من التصدى لدحض هذه الفرية الشنيعة. مع تصريحه فى بعض المواضع بأن هؤلاء المشركين يؤمنون بالله خالقاً (٢) .

وفى آيات الأحقاف الثلاث يتصدى القرآن ليكشف للمشركين ضلال معتقدهم فى الأصنام التى دَعَوْها آلهة مع الله ـ سبحانه عما قالوا وتعالى علواً كبيراً ـ وكان مدخل التصدى هذا الاستفهام : ﴿ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴾ ؟ أي : استحضروا صورتهم فى أذهانكم وأجيلوا نظركم فى حقيقتها (٣) ؟ ثم اسمعوا ما يتلى عليكم من تساؤلات حولها :

---

(١) الأحقاف : ٤ ـ ٦

(٢) كما في آية الزمر (٣٨) : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ .

(٣) جرى المفسرون والبلاغيون على أن المراد من هذا الاستفهام وما كان على منواله هو : أخبرني أو أخبروني .. وما ذهبنا إليه لا يتنافى مع هذا المعنى . وفي مواضع كثيرة من القرآن يكون ما ذهبنا إليه أليق بجلال القرآن .

أولاً : أرونى أى جزء من الأرض كان من خلقهم وتكوينهم؟

ثانياً : إذا عجزتم عن نسبة شيء من الأرض إليهم فهل لهم شرك فى السموات العلا؟

ثالثاً : إن ادعيتم شيئاً من ذلك لأصنامكم فأنتم تعلمون أن الدعاوى لاتصح ولاتثبت إلا بإقامة الدليل عليها . فما هو دليلكم على ما تقولون ؟ ألديكم كتاب حصلتموه قبل القرآن يقرر ما تقولون ؟ إن كان لديكم فأبرزوه لنا . أجل ليس لديكم كتاب يقرر ماتقولون. فَدَعوا أمر هذا الكتاب ما دام ليس فى حوزتكم . ولنسهل عليكم الأمر: ألديكم أثارة من علم صحيح ـ أى أثارة مهما ضؤلت ـ تؤيد قولكم؟ نبئونى بعلم إن كنتم صادقين .

هكذا يضيق القرآن الخناق على المشركين ليُجلِّى لهم حقيقة الأصنام التى يدعونها من دون الله. والمقصود بهذا البيان هو مساعدتهم على الخروج من الضلال الذى هم فيه ؛ لتتراءى لهم حقائق الإيمان فينقذوا أنفسهم بالإقبال عليه. ووسائل الإقناع السلمية هى التى استثمرها القرآن هنا وهو يتصدى لدحض شبهات الشرك ودواعيه . فلا سيوف، ولارماح، ولا خناجر، ولكن كلمات طيبات منيرات .

* *

* الخطوة الثانية ـ وصف الداعين بعد وصف المدعوين :

فرغت الآية الأولى من آيات الأحقاف الثلاث من وصف ، المدعوين : الأصنام ، وانتهت إلى أنهم « لا شيء » ، أما الآية الثانية فقد أبرزت فى صورة الاستفهام الإنكارى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ .. ﴾ وصف الداعين عبدة الأصنام : بأنهم بلغوا قمة الضلال وصاروا أوحديين فيه فلم يبلغ أحد غيرهم مثل ما بلغوا هم من الضلال . فهم أئمة الضلال ، وغيرهم تابعون لهم فيه .

* الأسبـــــاب :

ثم تبين الآية الكريمة أسباب الحكم عليهم بـ «الأضلية» فهم : ـ أولاً ـ يدعون من لايجيب دعاءهم إلى يوم القيامة ، وفى هذا كناية عن تيئيسهم وإقناطهم السرمدى الدائم.

وهم - ثانياً - ، يدعون من لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم ، أى يدعون « لاشيء » ﴿ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ .

وهم - ثالثاً - هذا حالهم فى الدنيا . فإذا حشر الناس للحساب يوم القيامة ﴿ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ وبهذا قضت الآية الثالثة من آيات الأحقاف الثلاث المذكورة .

تلا صاحب الدعوة هذا البيان على أسماعهم مرات . عساهم يرعوون عن غيهم وضلالهم . جادلهم بالحكمة والموعظة الحسنة ولم يقهرهم قهراً على الإيمان . بل عن طريق البيان الهادئ الرزين .

* * *

تمثيل عجز الأصنام

* النموذج الثالث ـ من سورة الرعد :

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ، والَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ ﴾(١).

في مواجهة القرآن لدعاوى المشركين ، حيث اعتقدوا أن أصنامهم تنفع وتضر ، ركّز القرآن كثيراً على تعرية الأصنام من الفائدة ، فلا هي بنافعة ، ولا هي بضارة . وآية الرعد التي ذكرناها آنفاً واحدة من آيات كثيرة مثبوثة في سور الذكر الحكيم ، أسهمت في وضوح في تجريد الأصنام من أي نفع أو ضر ، وأخلصت في النصح لمن يدعى تلك الدعوى من مشركي قريش وأسلافهم من الأمم الغابرة ، كقوم إبراهيم وهود وصالح عليهم صلوات الله وسلامه .

بدأت الآية المواجهة بأن الله له دعوة الحق، فهو ـ وحده ـ النافع والضار. أما ما يدعونه من دونه فلا يملكون نفعاً ولا ضراً ، لذلك فهم : ﴿ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ﴾ أي شيء وإن كان تافهًا حقيراً . وقد نفى فعل الاستجابة بحرف النفي « لا » دون لم ، أو لن مثلاً ، لأن النفي بـ « لم » مقصور على الماضي، وبـ « لن » موقوف على المستقبل . أما « لا » فهي للنفي في جميع الأوقات ، وهو المناسب هنا : لأن الأصنام عارية عن الاستجابة في كل وقت : ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً .

ثم يمضي القرآن قُدُماً في تيئيس المشركين من آلهتهم التي يدعونها من دونه ، فيصور لهم عجز آلهتهم في صورة حسية موحية ، ويكشف لهم عن ضلال عقيدتهم وسعيهم ، فيصوّرهم وهم يرجون النفع من أصنامهم بصورة رجل كاد يقتله الظمأ فوقف على شاطئ بحيرة وبسط كفيه في الهواء راجياً أن يصعد الماء إلى كفيه ليرفعه إلى «فمه» ؟! فالماء لن يصعد من مكانه ، فلن يبلغ كفيه ولن يبلغ فاه (فمه) وسيظل باسطًا كفيه محروماً ظامئاً حتى يلقى هلاكه.

---

(١) الرعد : ١٤ .

هذه الصورة التشبيهية توحى بالمعانى الآتية :

أولاً : خيبة مسعى المشركين الأبدية .

ثانياً : العجز الأبدى الحاصل للأصنام .

ثالثاً : التعريض بالمشركين بأنهم ليسوا عقلاء ؛ لأن العاقل لا يصدر عنه هذا « البله » من مدِّ الأكف فوق الماء راجياً صعود الماء إليها .

رابعاً : أن المشركين حين عبدوا آلهة من دون الله ورَجَوْا منها النفع لم يسلكوا الأسباب الصحيحة لتحقيق مقاصدهم ، بل هم قد تنكبوا سواء الصراط . أما الأسباب الصحيحة لتحقيق السعادة فى الدنيا والآخرة فهى توحيد الله ذاتاً ، وأفعالاً وصفات ، مع الالتزام بالمنهج الذى أساسه التوحيد قولاً وعملاً، فِعْلاً وتركاً ، هذا هو الحق . وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

أرأيت كيف نقل القرآن عجز ما يُعبد من دون الله، وضلال عقيدة الشرك من صورة ذهنية مجردة إلى صورة حسية موحية شاخصة للعيان ، يدركها ويسخر من صانعيها حتى الأطفال فضلاً عن الأذكياء وأُولى الألباب. هذا هو شأن القرآن فى نصاعة البيان ، وبلاغة القول .

* * *

تمثيل حقارة الأصنـــام

* النموذج الرابع ــ من سورة الروم :

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُم فِيــهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيــفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1] .

هذه الآية الحكيمة تمثل دوراً فى الدعوة بالوسائل السلمية لنبذ شبهة الإشراك وتمكين عقيدة التوحيد فى العقول والقلوب .

فهى ترقق المشاعر ، وتهذب الوجدان ، وتفتح القلوب الغُلْف ، وتخاطب العقول المستنيرة ، وتضع أمامها الحقائق فى رفق ولين ، لتقفز منها ــ بعد أن تتأملها ــ إلى الحق الذى لا مفر منه .

وتسد ــ بذلك ــ ثغرة من المنافذ التى ينفذ منها الشيطان إلى طوايا النفوس فيملأها أوهاماً وأضاليل. فالمشركون ــ كما حكى عنهم القرآن ــ يتذرعون فى عبادتهم للأصنام بأنها شفعاؤهم عند الله ؟

جاء ذلك صريحاً فى قوله تعالى حكاية عنهم :﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَيَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ .. ﴾[2] .

وكذلك قولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى .. ﴾[3] .

وهم ــ بهذا ــ يرفعون أصنامهم إلى درجة أن يكونوا نافذى الكلمة عند الله ؟ هذ الاعتقاد الضال تواجهه آية الروم السالفة الذكر مواجهة هادئة، ولكنها قوية السلطان، بالغة التأثير .

فالمثل المذكور فيها منتزع لهم من أحوال أنفسهم كما قال سبحانه : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴾ .

---

(١) الروم : ٢٨ (٢) يونس : ٨١ (٣) الزمر : ٣

أما صورة المثل فقد استُهلَّت باستفهام إنكارى هكذا : ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم [(١)] مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ؟!

أى هل لكم من عبيدكم الذين تملكونهم شركاء فى ما آتيناكم من أموال تخافونهم إذا تصرفتم فى أموالكم دون مشورتهم أن يغضبوا عليكم ويردوا تصرفاتكم التى تصرفتموها فى أموالكم بغير رضاهم والرجوع إليهم كما تخافون أنفسكم إذا شارك بعض أحراركم بعضاً آخر من الأحرار ؟! إن كان ذلك واقعاً فعلاً فى حياتكم فيصح أن الأصنام تدفع عنكم ما يراد بكم من عذاب من الله .

أما إذا لم يكن واقعاً ، وأنكم لا تقيمون وزناً لعبيدكم فى كل تصرفاتكم فكذلك الله لا يخشى أحداً من مخلوقاته ، فليس للأصنام عنده شفاعة ، ولا يستطيعون أن يردوا من قضاء الله شيئاً ﴿ لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾[(٢)] .

لقد وضع هذا المثل المشركين أمام باطلهم وجهاً لوجه. فما عساهم أن يقولوا ؟

إن قالوا : لنا شركاء مما ملكت أيماننا ،كابروا وخدعوا أنفسهم .

وإن قالوا : ليس لنا من عبيدنا شركاء ، لزمهم القول ببطلان الشرك ، ولم يبق أمامهم إلا التوحيد الخالص إن أرادوا لأنفسهم الخير، وإلا فقد لزمتهم الحُجَّة وكانوا من حصب جهنم هم فيها خالدون .

انظر كيف ألان معهم القرآن القول ، وقادهم برفق إلى مجالى الحق ؟

براهين ناصعة غايتها الإقناع . وحِكَم بيانية ساطعة غايتها الإمتاع . وسياسة للنفوس تستل منها الأكدار، وتَلَطُّف فى الدعوة إلى الحق فى كلمات قصار: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[(٣)] .

* * *

(١) أي من عبيدكم وإمائكم . (٢) الأنبياء : ٢٣ (٣) الزمر : ٢٣

تمثيل عقيدة الشرك

* النموذج الخامس ـ من سورة العنكبوت :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾(1) وهذا تمثيل آخر لضلال عقيدة الشرك وضعفها ، يضربه القرآن مثلاً للمشركين وعبدة الأصنام ، وكل من اتخذ ولياً من دون الله ، والعنكبوت حشرة لا يخلو منها بدوٌ ولا حضر، وهى فى البيئات البدوية أكثر انتشاراً منها فى البيئات الحضرية ، ولا ريب أن مشركى العرب الذين عاصروا نزول القرآن كانوا شديدى الإلف بهذه الحشرة ، وهى تعشعش فى بيوتهم ونواديهم ، وأن خبرتهم بها وبأحوالها تجعلهم مؤهلين لفقه هذا المثل القرآنى الحكيم، وبيت العنكبوت ـ كما جاء فى الآية الكريمة ـ هو مضرب الأمثال فى الضعف ؛ لأنه يتكون من خيوط رقيقة إذا تعرضت لنسمة لطيفة من نسمات الهواء تمزقت بدداً ، وإذا مرر طفل عليها كفه تحطمت وعلقت أشلاؤها بيده ، وليس بعد ذلك ضعف وحقارة .

والتمثيل القرآنى ـ هنا ـ وإن كان مسوقاً فى دلالته المباشرة لبيان حقارة بيت العنكبوت ، فإننا نلحظ فيه معنى آخر مطوياً فى ثنايا هذا التمثيل .

ذلك المعنى أن بيت العنكبوت لا يخفيه عن الأنظار ، فهو بيت فضلاً عن ضعفه : فاضح لمن حلَّ به ، وشأن البيوت الصالحة أن تكون قوية البناء ساترة لمن فيها .

وهذا هو شأن الشرك مع المشركين. إن المشرك يمسك بأسباب واهية واهنة حين يعتقد أن مع الله آلهة أخرى ـ سبحانه ـ وهى لضعفها لا تجلب له نفعاً، أى نفع ، ولا تدفع عنه شراً ، أىَّ دفع .

ومع هذه الخسة خسة أخرى ، وهى أن الشرك مفضوح مهتوك الأسرار ومَن يركن إلى عقيدة الشرك ، مثل بيت العنكبوت الذى يرى ظاهره من باطنه، وباطنه من ظاهره .

---

(1) العنكبوت : ٤١

وبعد أن ألمح التمثيل القرآني إلى هذه المعاني، وكشف للمشركين ضلال عقيدتهم أثارهم وألهب مشاعرهم ليتفكروا لعلهم يؤثرون الحق على الباطل : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

ضعف الأصنام صورة ذهنية مجردة ، والصور الذهنية أقل إدراكاً من الصور الحسية الواقعية المشاهدة ، وهكذا سلك المنهج القرآني في تمثيل تلك الصورة الذهنية ، حيث لم يقل لهم : إن الأصنام ضعيفة ، بل عمد إلى مشهد تقع عليه أعينهم صباح مساء ، ومثّل به لهم ضعف أصنامهم في صورة مرئية تقع أمام أبصارهم مرات في اليوم الواحد، وكأنه يقول لهم : كلما أبصرتم بيتاً لعنكبوت فتصوَّروه مثلاً لأصنامكم وآلهتكم التي تدعونها من دون الله . فأنتم عناكب وشرككم بيت العناكب ، ولو كنتم حقاً من أهل العلم لنبذتم الشرك بعد ما كشفنا لكم عن بطلانه وحقارته. هذا ـ لو كنتم تعلمون ؟!

أترى القرآن ـ هنا ـ حدثهم بما لم تدركه عقولهم ، أو بما لم تألفه نفوسهم ؟ أم حدثهم بما لا تخفى معانيه ومراميه حتى على السذج والبُلْه ؟

* * *

مُثُل من التاريخ النبوي

* النموذج السادس – من سورة الأنبياء : [1]

تم ساق القرآن لهم عظة وعبرة من عبر التاريخ وعظاته على لسان أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام. وفيها يقول القرآن الأمين: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ [2].

سألهم إبراهيم ساخراً منهم ومن تماثيلهم عما هم فيه من ضلال ، فما كان جوابهم إلا التقليد الأعمى لآبائهم . فكرَّ عليهم إبراهيم كرَّة أخرى مسفهاً لهم ولآبائهم فقال لهم : ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [3].

فوضعوا أمامه سؤالاً: ﴿ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ ؟ [4]

فأجابهم بغير ما ينتظرون ألاعب هو أم جاد. بل صار بهم إلى حقيقة التوحيد مباشرة : ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ [5] وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [6].

ثم تحداهم عياناً جهاراً فى أسلوب قسمى هادر: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ [7] هكذا يقف إبراهيم عليه السلام أُمَّة وحده أمام حزب الشيطان ويخاطبهم علانية بأنه سيكيد آلهتهم، ثم ينفذ عزمه فى قوة وإصرار : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [8].

لقد حطَّم أصنامهم وأحالها إلى أنقاض دارسة إلا صنماً واحداً علّق الفأس الذى حطّم به بقية الأصنام فى عنقه نكاية فيهم وسخرية بهم .

---

(١) الأنبياء : ٥١ – ٧٠
(٢) العنكبوت : ٥١ – ٥٣
(٣) الأنبياء : ٥٤
(٤) الأنبياء : ٥٥
(٥) فطرهن : خلقن من العدم
(٦) الأنبياء : ٥٦
(٧) الأنبياء : ٥٧
(٨) الأنبياء : ٥٨

وحين قدموا عليها فى صبيحة عيد وجدوا المفاجأة المذهلة فى انتظارهم؟ لقد وجدوا الآلهة التى جاءوا ليعبدوها ويتقربوا إليها أكواماً من الطوب والتراب

* *

* المحاكمة :

﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ (١).

قرروا أن يعقدوا له محاكمة سريعة فى مسرح الحدث الضخم الذى وقع ليلاً وهم وآلهتهم غافلون ، محاكمة علنية أمام الجمهور ثم جيء بالمتهم البرىء . وسرعان ما جرى استجوابه : ﴿ قَالُواْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ (٢).

فكان جوابه الساخر : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ (٣)

لقد وقع هذا القول من أنفسهم موقع الصدق فلاحت لهم بسببه أشعة الهدى . ويسجل القرآن هذه الومضة فيقول : ﴿ فَرَجَعُواْ إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُواْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤).

ولكن ما كان الشيطان ليخلى سبيلهم فيمضوا فى طريق التوحيد إلى نهايته بعد أن لاحت لهم أضواؤه فسرعان ما ارتدوا : ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَى رُءُوسِهِمْ .. ﴾ (٥) وقالوا لإبراهيم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنطِقُونَ ﴾ (٦).

---

(١) الأنبياء : ٦١ — (٢) الأنبياء : ٦٢

(٣) الأنبياء : ٦٣ — (٤) الأنبياء : ٦٤

(٥) أي انقلبوا على رءوسهم ، وفي هذا تمثيل رائع لعودتهم إلى الضلال بعد أن أبصروا الحق وكادوا يؤمنون به .

(٦) الأنبياء : ٦٥ .

وهنا يثب إبراهيم عليه السلام وثبته الخالدة على الباطل الذى انخدع به أبوه وقومه، وهم يرون أصنامهم تلالاً من الأنقاض : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (١).

هزئ منهم ومن آلهتهم، وحقرهم وحقر آلهتهم : ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ ، وقدح فى سلامة عقولهم: ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ لقد ساقهم إبراهيم سوقاً إلى هذا المشهد التربوى الحكيم وأراهم أن ما يدعون من دون الله لا يدفع عن نفسه شراً ، ولا يجلب لها خيراً، فكيف يرجون ـ هم ـ منها نفعاً أو ضراً ؟! إنّ فاقد الشيء لا يعطيه أبداً . فما بالهم بمن فقد نفسه ؟

* *

* الحكـــم :

لم يذعن قوم إبراهيم للحق الذى أبصروه، ولم يكفروا بأصنامهم التى صارت « مُثْلَةً » أمام أعينهم ، فحكموا على إبراهيم بالإعدام حرقاً ، انتقاماً منه ، وثأراً لأنفسهم: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٢) فجمعوا الوقود وأضرموا النار، وألقوا فيها إبراهيم رسول التوحيد وهى مستعرة .

* *

* ولكن هيهـــات :

وأدركت عناية الله إبراهيم وكانت أسرع إليه من مس النار ظواهر جلده؛ لأن رب التوحيد ناداها فأمرها : ﴿ قُلْنا يَانَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٣) فكانت كما أمرها مَن بيده مقاليد كل شيء . وهيهات هيهات لما أرادوا .. ثم كانت النهاية : ﴿وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ (٤).

---

(١) الأنبياء : ٦٧
(٢) الأنبياء : ٦٨
(٣) الأنبياء : ٦٩
(٤) الأنبياء : ٧٠

ساق القرآن هذه القصة الزاجرة لمشركى العرب. فقد كان من قبل يحاورهم فى شأن الأصنام وهى شخوص ماثلة للعيان ، أما فى هذه القصة فقد آراهم الأصنام هشيماً تذروه الرياح ، وأصنام قوم إبراهيم هى أصنام المشركين فى كل زمان ومكان ، وما وقع لها على يد إبراهيم جائز الوقوع فى كل لحظة ، وقد حدث هذا فعلاً عام فتح مكة حيث طهّر الفاتحون بيت الله الحرام منها، ولم يبق صنم فى مكة بعد الفتح إلا وصار كتلاً من الصخور المفتتة ، ثم ذهب كل شيء وارتفعت أعلام التوحيد فى ربوع البلد الحرام و﴿ .. جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [1].

* * *

(١) الإسراء : ٨١

صورٌ من دلائل التوحيد

النموذج السابع ــ من سورة النمل :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى، ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُواْ شَجَرَهَا، أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا، أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ، أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] .

فى هذا المقطع من الآيات يضع القرآن الحكيم الكون كله ــ خَلْقاً وتدبيراً ــ مادة حية للنظر والتأمل والاستدلال : آيات فى الخلق والتكوين، وأخرى فى التصرف والتدبير، وثالثة، ورابعة، وخامسة. وهكذا رسمت هذه الآيات من الكون والخلق لوحة استدلالية دقيقة الإحكام تهدف إلى أمرين عظيمى الشأن :

الأول : وحدانية الله فى الوجود .

الثانى : إبطال عقيدة الشرك فى كل مظهر من مظاهرها فليس مع الله خالق ، وليس مع الله متصرف ، وليس مع الله مدبر ، وليس مع الله مبدئ ، وليس مع الله معيد ، وليس مع الله مالك ، وليس مع الله رازق . بيده هو ــ وحده ــ ملكوت السموات والأرض ومابينهما، لا إله إلا هو العزيز الوهّاب .

ولما كانت هذه الآيات تواجه أباطيل المشركين، فقد بدأت بهذا البيان : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ للهِ، وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى .. ﴾[2]

---

(١) النمل : ٥٩ ــ ٦٤ (٢) النمل : ٥٩

فالحمد لله لأنه هو المنعم بالنعم التى ذكرت فى الآيات بعد هذا البيان ثم: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى .. ﴾ وهم الموحّدون من الأنبياء والرسل ومن اتبعهم بإحسان. ثم بدأت الآيات لمواجهة المشركين فى إجمال، ثم تفصيل ...

أما الإجمال فهو قوله تعالى: ﴿ ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ؟ والاستفهام ـ هنا ـ يحمل شحنة من الإنكار الموجه لعقيدة الشرك وما يُعْبَدُ من دون الله. فليس فى أصنامهم خير قط، فضلاً أن تكون أكثر خيراً من بارئ الكائنات .

وتكرر هذا الإنكار، ولكن بنفى أن يكون مع الله إله عقب كل مجموعة من الآيات والعظات التى ذُكرت ..

ففى الآية (٦٠) لفت نظرهم إلى : خَلْق السموات والأرض ، وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق النضرة التى ليس فى مكنة مخلوق إنبات شجرها ، ثم تساءل منكراً: ﴿ءَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ ﴾؟ ولم يُذكر جواب هذا التساؤل لحكمتين :

إحداهما : بيانية يُنبئ عنها سياق الكلام، وهى الإنكار فى صدر الجملة: ﴿ ءَإِلَٰهٌ مَعَ اللهِ ﴾ ؟ وهذا الإنكار جعل الجواب كأنه مذكور .

والأخرى : تربوية . لأن فى ترك النص على الجواب تهيئة لأذهان المخاطَبين ليتفكروا ويصلوا إلى تصور الجواب بأنفسهم ، وهذا أدخل فى الإقناع والتسليم ؟ وقد تكرر هذا الموقف الحكيم فى كل صور الاستفهام فى الآيات التى تلت .

ثم تأتى فاصلة الآية : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ والمعنى ـ والله أعلم ـ أن الحق لائح أمامهم يدركونه يقيناً ، ولكنهم لم يصيروا إليه ، لأنهم مشركون بربهم عناداً ومكابرة .

وفى الآية (٦١) ينتقل البيان المعجز إلى لفت الأذهان إلى الآيات التى أودعها الله فى الأرض بعد أن خلقها : فهى قرار مكين. قرار حسى لأنها ثابتة لا تضطرب. وقرار نفسى بما أودع فيها من نِعَم وخيرات. فقد أجرى فيها الأنهار. وأرساها بالمثقلات من الجبال لئلا تميل وتنكفئ فيهلك من وما عليها جميعاً . وجَعْله بين البحرين : الحلو والمالح حاجزاً حصيناً فيه للعقلاء عظة. الماءان متجاوران دون أن يحدث بينهما امتزاج : حاجز مائى

لا سدود ولا قناطر . ثم يتكرر التساؤل الإنكاري : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ ؟ كلا. وإنما دعاهم إلى الشرك جهلهم وغباؤهم .

وفى الآية (٦٢) يثير القرآن مشاهد من تصرفات الله الحكيم فى المجتمع البشرى كله: من إجابة دعوة المضطر حين تنقطع به كل السُّبُل ويلجأ إلى الله. فيكشف السوء ، ويزيل الضرر، ومن تصرفه فى أحوال العباد وتمكينهم فى الأرض جيلاً بعد جيل : نزع وإيتاء. إماتة وإحياء نظام حكيم لا يتخلف ثم يأتى التساؤل : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ ؟ كلا ولكنهم غافلون ساهون عن هذه الآيات .

وفى الآية (٦٣) ينتقل إلى التذكير بآيات برية وبحرية وأفقية فهو يهديكم فى ظلمات البر والبحر، ويرسل السماء عليكم مدْراراً بعد أن يبشركم بإرسال الرياح بين يدى رحمته، ثم يأتى التساؤل : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ ؟ بعد كل هذه العظات البينات ، والدلائل اللائحات أمامكم . سبحان الله وتعالى عن الأنداد والشركاء .

أما الآية (٦٤) فقد لوَّحت فى مجال هذا الاستدلال المفحم بآية بدء الخلق ثم إعادته، وبآية الرِّزْق من السماء بإنزال الماء بما يكفى حاجة العباد والزروع والأنعام ، ثم تُقَفِّى بالتساؤل المنكر لوجود إلهٌ مع الله : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ ؟

ولما كانت هذه الآية (٦٤) مسك الختام لهذا القطع الاستدلالى كانت خاتمتها : ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى إن كنتم بعد هذه الدلائل كلها التى تعاينونها بأبصاركم ، وتدركونها بعقولكم ، وتحسونها بمشاعركم ، وتعيشونها بكل جوارحكم، إن كنتم مع هذا كله تؤمنون بأن مع الله آلهة فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين فى زعمكم وكان لكم برهان تستندون إليه .

والأمر فى قوله تعالى : ﴿ هَاتُوا۟ ﴾ للتعجيز ، وعجزهم عن الإيتاء ببرهان كفيل ــ لو أطرحوا العناد ــ أن يبصرهم بما هم فيه من ضلال، وأن يهيئ لهم سبل الهداية إلى الحق إن كانوا يريدون الحق .

وإلا فقد قامت عليهم الحُجَّة، وباعوا أنفسهم للشيطان وليهم فى الدنيا والآخرة. وخسروا أنفسهم، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

أرأيت كيف أخلص لهم الناصح فى النصح؟ وكيف هيأ لهم سبل الإيمان الحق، وكشف عن مساوئ الضلال الذى آثروه على الهدى. وكيف استثمرت الدعوة وسائل الإقناع السلمية؟ لعلهم بربهم يؤمنون .

* * *

دليل عقلي قاطع على الوحدانية

* النموذج الثامن ــ من سورة الأنبياء :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ* لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾[1]

يمثل هذا النموذج خطوة أخرى حاسمة في الإقناع بقضية التوحيد ، ويرتكز على الاستدلال العقلي المستند إلى النظام الكوني المحكم .

فهذا الكون ــ منذ وُجِد وإلى الآن ــ يسير على نظام دقيق من سنن الله الكونية، والقوانين المطردة في شئون الحياة فالسماء فوقنا ، والأرض تحتنا ، والأفلاك تسير حسب النظم الإلهية ، والنجوم تلمع في السماء، والشمس تشرق وتغرب وتتنقل في أبراجها طوال العام لا يختلف عام عن عام ، والقمر يبدأ هلالاً صغيراً ثم ينمو وينمو حتى يصبح قرصاً كاملاً في منتصف الشهر، ثم يتناقص ليلة فليلة حتى ينعدم تماماً في آخره ثم يعاود ظهوره مرة أخرى على النسق المعلوم، والرياح تهب، والسحب تمر، والغيث ينزل، والأرض تنبت، والناس والأنعام والطيور تمرح وتمرع. وأجيال تقدم وأخرى تحجم، والمواهب والأرزاق تتفاوت .

هذا النظام الحكيم من أقطع البراهين العقلية على أن مالك هذا الكون واحد متفرد ذو كمال مطلق ، لا يحول ولا يزول ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ؛ لأنه قيوم السموات والأرض لا يسأله أحد عما يفعل؛ لأن الأمر له وحده، أما من عداه فكلهم راجعون إليه، فَيُسأل كلاً منهم عما كانوا يعملون .

أما لو كان معه آلهة ــ كما يقولون ــ لفسد هذا النظام في السموات والأرض، نتيجة للصراع واختلاف الإرادات ، وهذا شأن كل القوى والسلطات المتساوية في القدرة أو المتقاربة .

---

(١) الأنبياء : ٢٢ ــ ٢٣

وإلـى هـذا يـشير قـوله تـعالـى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ، إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]

* * *

(١) المؤمنون : ٩١

النموذج التاسع ــ من سور يونس، والعنكبوت، وفاطر:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ، وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾[1] .

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾[2] .

﴿ ...وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[3] .

هذه الآيات جميعاً تتفق فى الإخبار بما سيكون عليه الحال بين المشركين وبين ما كانوا يرون أنها آلهة من دون الله فعبدوها ضالين مفتونين .

والخبر الذى تكرر فيها جميعاً هو براءة ما عُبد من دون الله ممن عبدوهم ..

ففى يونس يقول المعبودون[4] لعابديهم : ﴿ مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ ويُشْهِدون الله على ذلك .

وفى العنكبوت .. تتجاوز المفاجأة مجرد الكفر بعبادة المشركين إلى خصام عنيد يتبادلون فيه اللعنات ..

---

(١) يونس: ٢٨ ــ ٢٩ ــ مكانكم: أي لا تتحركوا .

(٢) العنكبوت : ٢٥

(٢) فاطر : ١٣ ــ ١٤ ــ القطمير: الغشاء الرقيق حول النواة .

(٤) قيل هم العقلاء من الملائكة الذين عُبدوا من دون الله، وعيسى ابن مريم. وقيل: هي الأصنام ينطقها الله ليكون ذلك حسرة على المشركين.

المشركون يلعنون آلهتهم ، وآلهتهم تعلنهم ، ثم يصيرون جميعاً إلى النار، ولا يجدون لهم ولياً ولا نصيراً .

وفى فاطر .. يتكرر الخبر بكفر الآلهة المدعاة بشرك المشركين ، وهكذا تنفصم عُرى المشركين التى كانت بينهم وبين آلهتهم المدعاة. ويتبين المشركون أنهم كانوا كاذبين، ويندمون يوم لا ينفع الندم .

ثم يُقضَى عليهم وعلى أصنامهم ومَن رضى بعبادتهم من الناس كفرعون فيساقون إلى جهنم وبئس المصير، ثم يقال لهم: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا، وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [١] .

* * *

(١) الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠

قطب الدائـــرة

هكذا تتجلى سماحة الإسلام في الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، ونبذ عقيدة الشرك والضلال ، والنماذج التى قدّمناها ـ وغيرها كثير ـ استخدمت فى هذه الدعوة ـ بشقيها الإيجابى والسلبى ـ وسائل إقناع سلمية لم يصاحبها قهر ولا بطش ، والقطب الذى دارت حوله هو تجلية الحقائق ، ودفع الشبهات ، ثم تركت الناس أحراراً فيما يختارون لأنفسهم : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ، فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ.. ﴾[1]

هذه الحرية في الاعتقاد تمثل قمة العدالة والتسامح فى هذه الحياة الدنيا أما فى الآخرة : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ.. ﴾[2] .

ولا يقال إن الدعوة هنا استخدمت العنف والإرهاب بل هى راحمة أبلغ ما تكون الرحمة ؛ لأن هذا الوعيد ورد والناس فى سعة من أمرهم . فمن اختار الكفر فقد أراد الشقاء لنفسه . وما ربك بظلام للعبيد .

* * *

(١) الكهف : ٢٩

(٢) الكهف : ٢٩

القضية الثانيـــة : قضية البعث

كانت قضيـة البعث من أبرز القضايا بعد قضـية التوحيد التى أحدثت شـقاقاً خطيراً بين الرسل وأقـوامـهم، ومشـركـو العـرب ورثوا هذا الشـقاق عن أسـلافـهم من الأمم الغـابرة، فـاستـبعـدوا واستـحالوا أن يُـبعث الأموات، ورددوا مـا كان يقـوله الكافرون من قـبل من شبهات واهيـة استندوا إليها فى إنكار البعث كما حكـى عنهم القرآن الأمين. وكان موقف الوحى من هذا الإنكار واحداً فى جميع الرسالات السماوية بلا خلاف بينها .

وقد نهج القرآن الحكيم فى رده عـلى مشركى العرب المنكرين للبعث مـا نهجه فى الرد عليهـم فى إنكار قضيـة التوحـيد . فـهو فى كل مـوضع يتصدى فـيه لهـذه القضـية يُصّور شبهـات الخصوم تصويراً أمـيناً كما وردت على ألسنة مدعـيها . ثم يكر عليهـا مفنداً لها ، وكاشفـاً عما فيـها من زيف وجهل ، ونقدم فيـما يأتى بعض النماذج القرآنـية التى تصدت لدفع تلك الشبهات .

* * *

الذى فطركم أول مرة

النموذج الأول ـ من سورة الإسراء :

﴿ وَقَالُواْ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ، فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا، قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ، قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾(1) .

هذا القول صادر عن مشركى العرب كما يفهم من سياق الحديث الوارد فيه هذا القول فى سورة الإسراء .

وإنكارهم للبعث مرتكز ـ هنا ـ على شبهة واحدة، هي : ذهاب أرواحهم وصيرورة أبدانهم عظاماً نخرة ، ورفاتاً متفتتة متهرئة ، وقد ضمنوا قولهم هذا استفهامين أولهما تقريرى لا ينازعون فى حصوله ، وهو : تحول أجسادهم بعد الموت إلى عظام وفُتات .

أما الثانى ؛ فإنكارى يستبعدون حصوله، وهو إعادة خلقهم مرة ثانية كما كانوا قبل الموت، والمعنى الذى قصدوه هو : أوَقْتَ صيرورتنا عظاماً متفتتة أنحن مخلوقون خلقاً ثانياً بعد الذى كان لنا قبل هذه الحالة المغايرة لما كنا عليه ؟

* *

* الرد المفحم :

أما رد القرآن الحكيم على ما أثاروه فى هذه الشبهة فقد كان رداً مفحماً للخصم، لايسع العقل إلا الإذعان له لإزالته الشبهة من جذورها .

فالمشركون استبعدوا البعث بناء على أن إعادة الحياة إلى الموتى بعد أن صاروا عظاماً بالية مستحيلة ، لهذا التطور الذى طرأ على الهياكل البشرية .

---

(1) الإسراء : ٤٩ ـ ٥١

فخطا القرآن ـ أولاً ـ هذه الخطوة، فأمرهم ـ إن كان فى مقدورهم ـ أن يكونوا حجارة أو حديداً ، لا عظاماً فحسب لأن العظام كانت ذات حياة يوماً ما فإعادة الحياة إليها أمر يسير ، أما الحديد والحجارة فهى جماد ما عرفت الحياة قط، أو كونوا خلقاً آخر غير الحجارة والحديد ، أى خلق تختارونه وترون فيه أن الخالق لا يقدر على بث الحياة فيه .. هذا ما أمر اللهُ به رسولَه ليقوله لمنكرى البعث.

ورتب على هذا سؤال سيوجهه منكرو البعث للرسول إذ سيقولون له: مَنْ الذى يعيدنا للحياة سواء أكنا كما نحن أو حَلَلْنَا فى أى خلق آخر ؟

وكان الجواب المحكم المفحم : ﴿ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

إن حجم الإفحام والإلزام فى هذا الجواب يهد الجبال ..

فهم ينكرون عودة الحياة للعظام التى كانت من قبل ذات حياة ظاهرة، وملامح محفوظة ، وآثار باقية. فكيف يعجز الله ـ وكان قد خلقها من قبل من العدم ـ عن إعادة الحياة إليها ؟! فهل لمنكرى البعث من سبيل إلى إنكار الخلق الأول ؟ كلا ثم كلا. إذاً فإن الذى فطرهم لأول مرة ـ وهذا ما لا نزاع فيه ـ قادر على إعادة الحياة متى وكيف شاء .

قيـــاس : لو أن مهندساً صنع جهازاً عجيباً أدهش مَن رآه ، ثم جاء رجل آخر فحطمه فقال المخترع للناس : سوف أعيد تكوينه مرة أخرى . لو حدث هذا هل كان سيقع فى خاطر أحد أن يستبعد على المخترع صدقه فى إعادة التكوين ؟

هذا مثل توضيحى ـ ولله المثل الأعلى ـ لذلك فإن منكرى البعث لم يجادلوا فى صحة هذا القول، ولكنهم انتقلوا إلى السؤال عن موعد البعث مع هزات برءوسهم تعجباً واستهزاء حيث لم يملكوا شيئاً يقولونه أمام هذا الإفحام المذهل: ﴿ مَتَى هُوَ ﴾ ؟ والمسئول ليس بأعلم من السائل عن موعد وقوع البعث . فما كان الجواب إلا كما أوحى إليه ربه : ﴿ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً ﴾ ؛ لأن علم الساعة عند الله وحده ، لا يجليها لوقتها إلا هو : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنـدَ رَبِّى،

لاَيُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، لاَتَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ﴾ [1].

إن مخاطبة العقل بما يحقق له الإقناع والتسليم هى الوسيلة أو الأداة السلمية التى يدير القرآن جدله وحواره مع الخصوم عليها ، دون أن يفرض عليهم الحق بقوة السلاح وفى أنفسهم ريب منه ، وهكذا صنع معهم القرآن فى هذا المقام .

* * *

(١) الأعراف : ١٨٧

الذى أنشأها أول مرة

النموذج الثانى ـ من سورة يس:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم، بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [1].

صاحب هذه الواقعة هو أُبَيُّ بن خلف، انصرف من مجلس كان يضم بعضاً من منكرى البعث ، وقال : لأذهبن إلى محمد (ﷺ) ولأخاصمنه ـ يعنى يغلبه ويُعجزه عن إقامة الدليل على صحة عقيدة البعث ـ وحمل معه قطعة من عظام ميت قد بليت . ثم وقف بين يدى النبى وأخذ يسحق العظام بيديه ويذريها فى الهواء ويقول : من يحيي هذه بعد موتها يا محمد ؟ فقال ﷺ : « الله يبعثها ويبعثك ويدخلك النار» . ثم نزل الوحى بالآيات المذكورة قبلاً يرد جهل أُبَيٍّ وكفره، وقد ذكر القرآن مقولة منكر البعث فقال : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [2] .

لكننا نلحظ أن القرآن الحكيم ذكر جملة : ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ بين : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ﴾ ، وبين : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ . ولهذه الجملة دور عظيم فى الإفحام لمنكرى البعث ؛ لأن ضارب المثل استبعد إحياء العظام بعد أن رمَّتْ وتهرأت. ناسياً أن الله خلقه وخلق جميع الخلق من العدم. فإعادة الحياة إلى أى مخلوق بعد الموت أيسر فى ميزان العقل من خلقه ابتداء على غير مثال سابق ، ومعنى هذا أن منكرى البعث لو كانوا استحضروا هذه الحقيقة فى أذهانهم لما وجدوا مساغاً لاستبعاد إعادة الحياة إلى أى ميت كان، لكنَّ نسيانهم هذه الحقيقة حملهم على هذا التطاول

---

(١) يس : ٧٨ ـ ٨٢ (٢) يس : ٧٨

والجهل. فأنت ترى ـ عزيزى القارئ ـ أن ذكر هذه الجملة وحدها ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ ـ رد كاف ومقنع فى آنٍ واحد، ومع هذا البيان الواضح ساق القرآن أدلة أخرى فى الرد على هذه المقولة منها :

أن منكرى البعث سألوا سؤال إنكار وتعجيز عن فاعل إعادة الحياة إلى العظام الدارسة فكان الجواب : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [1] عبارة محكمة وبرهان قاطع قُرِنَتْ فيه الدعوى بالدليل الذى لا يجد العقل حيلة لرده ؛ الدعوى : هى إحياء العظام .والدليل : هو الذى أنشأها أول مرة .

ومنها أن الذى أنشأها أول مرة : ﴿ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [2]. أىّ خلق كان : معهوداً للبَشر أو غير معهود .

ومنها : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً.. ﴾[3] .

ومنها: ﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ [4].

أى : أيعجز مَن خلق السموات والأرض عن إعادة الحياة إلى الأموات ؟ فأيهما أكبر وأعظم ؟ السموات والأرض أم الإنسان ؟

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴾[5] وهو مع هذا كله خلاق : كثير المخلوقات. وعليم : كثير المعلومات .

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَبَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[6]. أى كخلق وبعث نفس واحدة .

ومنها : أنه إذا أراد إيجاد شيء لم يزد على قوله له : «كن» فلا يلبث حتى

---

(١) يس : ٧٩ (٢) يس : ٧٩

(٣) يس : ٨٠ ـ و في تفسير هذه الآية أراء متعددة أقربها إلى الأذهان أن الزرع عموماً يتولد عنه الأكسوجين في عملية التمثيل الضوئي المعروفة. والأكسوجين عامل مساعد على اشتعال النار .

(٤) يس : ٨١ (٥) غافر: ٥٧ (٦) لقمان : ٢٨

« يكون » . ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾[1] . و﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ .. ﴾[2] .

وإذا قارنا بين التفصيل فى الرد على الخصوم فى سورة يس، وبين الإجمال الذى رأيناه فى سورة الإسراء نجد أن ما ورد فى كل من الموضعين مناسب للمقام .

ففى سورة الإسراء كان المقام مقصوراً على حكاية منكرى البعث فى إطارها النظرى البحت : ﴿ وَقَالُواْ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾[3] .

لذلك وقف القرآن فى الرد عليهم عند الدليل العقلي: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا، قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾[4] .

أما فى سورة « يس » فقد قرن منكرو البعث القول بالفعل من حمل العظام وتفتيتها فى مجلس صاحب الدعوة ﷺ ، وبلغ التحدى منهم مداه. فناسب ذلك أن يُسهب القرآن معهم فى وجوه الرد : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾[5] .

ثم أردف عليه الأدلة الأخرى التى أشرنا إليها من قبل .

* * *

---

(١) القمر : ٥٠ (٢) الأنبياء : ١٠٤ (٣) الإسراء : ٤٩
(٤) الإسراء : ٥١ (٥) يس : ٧٩

النموذج الثالث ــ من سورة «ق» :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُّنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا، ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ، وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ، كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1].

* فروق واضحة :

بين هذا النموذج واللَّذَين سبقاه فروق واضحة؛ ذلك أن القرآن الحكيم فى النموذجين السابقين دحض شبهات منكرى البعث بالدليل العقلى المباشر، وفى إيجاز كما تقدم، أما فى هذا النموذج فقد ذكر شبهتهم فى استبعاد البعث ولم يتصد لها مباشرة ، بل عمد إلى ذكر حقائق أخرى يلزم منها عند مَن تأملها دحض تلك الشبهة . وهذا النموذج ينتظم فى خمس عشرة آية كما ترى .

الآية الأولى : قَسَمٌ من الله بـ ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [2]، وجوابه كما أجمع المفسرون محذوف لدلالة سياق الكلام ــ بعده ــ عليه، وتقديره: لتبعثُنَّ .

---

(١) سورة ق : ١ ــ ١٥

(٢) سورة ق : ١

أما الآية الثانية : ففيها التصريح بتعجبهم من إرسال صاحب الدعوة إليهم : ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (١) .

والآية الثالثة : تضمنت استبعادهم للبعث مع ذكر الشبهة الوحيدة التى تواطأ عليها منكرو البعث على مدى التاريخ النبوى كله .

ثم تبدأ المواجهة من الآية الرابعة على النسق الآتي :

أولاً : فى الآية الرابعة بيان بأن علم الله محيط بخلقه جميعاً ومنهم منكرو البعث، ومن مظاهر علمه أنه يعلم علم إحاطة بما يحدث لهم تحت الأرض بعد موتهم من تآكل أبدانهم وتهرؤ عظامهم ، وأنَّ الله عنده كتاب ضابط لكل شيء . ومن كان هذا شأنه فلايعجزه شيء فى ملكوته: إحياء، إفناء، بعث من جديد، إنه على كل شيء قدير .

ثم تبين الآية الخامسة أن داءهم الحقيقى هو التكذيب بالحق الذى جاءهم به صاحب الدعوة ﷺ ، وتكذيبهم بالبعث صورة من صور التكذيب بالحق كله ، وبسبب هذا التكذيب بالرسالة ـ جملة وتفصيلاً ـ انتابهم اضطراب وتخبط شأن مَنْ يرفض النور ويعيش فى الظلام : ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾(٢) .

ومن الآية السادسة حتى الحادية عشرة شروع فى لفت الأنظار والعقول إلى بعض آيات الله الكونية من إحكام الخلق، والتدابير السنية، والنِعَم التى هيأها الله لعباده، والتصرفات المباركة فى شئون الحياة .

بادئًا بدلائل عظمة الله فى خلق السماء فى بنائها المحكم وتزيينها للناظرين، وفيها من العظات والعبر ما يعمق حصول الإيمان فى القلوب بكل ما جاءت به الرسل .

ثم كيف مدَّ الله الأرض وبسطها وثبَّتها بالرواسى الشامخات وأنبت فيها أصنافاً ذات بهجة من الزروع والأشجار ، لا لتمد الناس بما يحتاجونه فى حياتهم من صنوف النعم فحسب ، ولكنها مع ذلك فيها دلائل مبصرة تغذى القلوب بالإيمان كما تغذى الأجسام

---

(١) سورة ق : ٢

(٢) سورة ق : ٥

بالطعام ، وفيها ذكرى وهداية لكل عبد أراد الخير لنفسه يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا مَن أتى الله بقلب سليم .

ثم ساس القلوب سياسة حكيمة ووضع أمامها صور الماء المبارك النازل ــ بقدرة المنعم ــ من السماء، فسرعان ما تتلقاه الأرض فتنمو الحدائق والكروم بما لذَّ وطاب للعين والفم، وكذلك حب الحصيد الذى هو مصدر قوتهم، وترى النخل باسقاً ، أصله ثابت وفرعه فى السماء ، تجود بأينع الرطب والثمار المختلف لوناً وطعماً وحجماً ، أرزاق طيبة منَّ الله بها على العباد يروحون ويغدون فيها ، وإذا نزل الماء على الأرض الموات أحياها فصارت كالعروس ترفل فى ألوان الزينات .

وهنا يعمد القرآن ، وقد انجلى صدأ النفوس ، وتفتحت القلوب ، ورقت المشاعر ، يعمد القرآن إلى توظيف هذا المشهد الذى يتكرر كثيراً، وهو إحياء الأرض الموات ، وجعله دليلاً على إمكانية البعث عقلاً فيقول : ﴿ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾[1] أى كما نحيي الأرض الموات بإنزال الماء فتصبح الأرض مخضرة ، نخرج الموتى من قبورهم أحياء كما كانوا قبل أن يموتوا، فإذا كان منكرو البعث لا ينكرون هذه المشاهد المتكررة فكيف ساغ لهم أن ينكروا البعث، والإحياءان سواء فى قدرة الله ؟

ثم .. أكُلُّ هذه الدلائل والعبر غابت عنهم وهم يشاهدونها فى كل لحظة تمر بهم ؟ إن إنكار البعث لم يكن سببه قصوراً من الدعوة فى إثبات وقوعه عقلاً، فقد هيأت الدعوة ــ بالوسائل السلمية ــ الطريق واضحة إلى كل ما طُلب منهم الإيمان به، وليس البعث وحده، فضلال منكرى البعث ضلال عن علم وهُدىً بعد أن بيَّن الله لهم الحق من الباطل. استحوذ عليهم الشيطان وزيَّن لهم سوء اعتقادهم وعملهم، فصدُّوا عن السبيل وهم مستبصرون .

* *

---

(١) سورة ق : ١١

* مُثُلٌ من الأمم الغابرة :

وإخلاصاً فى النصح لهم ، وقطعاً لأعذارهم ساق لهم إشارات من تاريخ الأمم الغابرة، الذين كذَّبوا الرسل فحق عليهم العقاب ، أشار لهم إلى قصة قوم نوح وأصحاب الرس[(١)] ، وثمود، وعاد، وفرعون ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة ، وقوم تبع ، هؤلاء الأقوام جميعاً تواطأوا على تكذيب الرسل توحيداً وبعثاً ، فأهلكهم الله فى الدنيا قبل الآخرة : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ، فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[(٢)] .

كان هذا مضمون ما عرضته الآيات: (١٢ – ١٤) ، والتخويف من سوء المصير وسيلة سلمية ذات شأن عظيم فى مجالات التربية والتوجيه ؛ لأن طبائع النفوس مختلفة فمنها ما ينقاد عن طريق الإقناع ، ومنها ما ينقاد عن طريق الترغيب ، ومنها ما ينقاد عن طريق التخويف . ومنها ما ينقاد عن طريق هذه الوسائل كلها مع التساوى حيناً ، ومع التفاوت حيناً آخر .

والدعوة إلى الإيمان بالوسائل السلمية فى القرآن وظَّفَتْ كل هذه الوسائل فى سياسة النفوس، واستمالتها إلى الحق ، والقرآن حافل بالنماذج الدالة على هذا المنهج الكامل المتكامل ، ولكن كثيراً من خصوم الدعوة غلبت عليهم شقوتهم فتنكبوا سوآء الصراط .

ثم تأتى الآية (١٥) خاتمة المطاف فى هذا النموذج الاستدلالى الحكيم، مستثمرة كل ما تقدم من وسائل الإقناع السلمية، فى صياغة حكيمة للاستدلال بها : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ...﴾ ؟

تساؤل إنكارى ينتهى إلى نفى ما وقع عليه التساؤل: كلا لم يصبنا إعياء ولا كلل من خلقنا كل ما خلقناه مما هو منظور مشاهد، ومما هو غيب لم يطلع عليه أحد من دقائق صنع الله وآثاره، إذاً فكيف نعجز عن بَعث من مات ممن خلقنا ؟

---

(١) الرس : اسم موضع كفر أهله فهلكوا

(٢) العنكبوت : ٤٠

أهذا يقع فى عقل عاقل ؟ كلا، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

إن دلائل الحق جلية، وأماراته واضحة، ولكن منكرى البعث اختلط عليهم الأمر بسبب جهلهم وإعراضهم عن تأمل الأدلة، لا لعيب فى مناهج الكشف والاستدلال بل لأنهم : ﴿ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

ومع اكتفائنا بهذه النماذج الثلاثة ، فى إبطال شبهات منكرى البعث ، وغيرها كثير فى الذكر الحكيم ، نسجل هذا البيان قبل أن ننتقل إلى المبحث الثانى من سماحة الدعوة إلى الإسلام فى القرآن الكريم فى العهد المكى .

وخلاصة هذا البيان فى إيجاز شديد : أن استعراض مواقف القرآن فى هذه القضية يُسفر عن حقيقتين عظيمتى الشأن :

الأولى : أن البعث أمر ممكن عقلاً وليس مستحيلاً عقلاً كما زعم منكروه؛ لأن الإعادة أيسر فى حكم العقل من الابتداء ، والله الذى خلق الخلق ابتداءً ، من العدم قادر بلا أدنى نزاع عقلى على إعادته حين يشاء .

الثانية : أن البعث من حيث تواتر الخبر الدينى به واجب شرعاً لن يتخلف حسب ما هو مقدرٌ فى علم الله .

ويترتب على هذا أن منكرى البعث اقترفوا إثمين عظيمين :

الأول : رفضهم لدليل العقل الواضح الجلي، وبذلك حرموا أنفسهم من الاستفادة بأجل نعمة زوَّد الله بها الإنسان فى تكوينه الخِلْقى .

الثاني : تكذيبهم ربهم فى ما أوحى إلى رسله الأمناء فى التبليغ . وبذلك كله : ﴿ ...أَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا، وَبِئْسَ الْقَرَارِ ﴾[1] .

* * *

---

(١) إبراهيم : ٢٨ ـ ٢٩

المبحث الثانـــي

سماحة الدعوة فى القرآن الكريم فى العهد المدني

واجـهت الدعـوة الإسـلاميـة بـعـد الهـجـرة إلى المدينة ظـاهرتين شـديدتى الخطورة والتعقيد :

أولاهمـــا : مزاعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى وما أثاروه من لغط وأباطيل .

والأخـــرى : ظاهرة النفاق والمنافقين .

وقد تصدّى القرآن الحكيم لكل ظـاهرة منهما بما يناسبها من الوسائل السلمـية، محاوراً ومجادلاً بالتى هى أحـسن، وها نحن أُولاء نرتشف رشفات خفيفـة من مواقف القرآن أزاء هاتين الظاهرتين، لنؤكـد بأقطع الأدلة، وأسطع البـراهين أن القرآن نهج فى كل مـواقفـه مع الفريقين منهـجاً سلميـاً مع خطورة الشقاق الذى كـان يبثه الفـريقان معـاً، وأنه رغم العداء الشديد الذى كـان يضمره أهل الكتاب والمنافـقون، لم تُعْمل الدعوة فـيهم رمحاً ولا سـيفاً لمجرد أنهم أهل كتاب أو منافقون اللهم إلا المعاملة بالمثل إذا اعتدى منهـم أحد على المسلمين ..ولنبدأ بالظاهرة الأُولى منهما .

❊ ❊ ❊

﴿ وَلاَ تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

(العنكبوت : ٤٦)

* * *

الظاهرة الأولى
مواقف الدعوة السلمية من أهل الكتاب

لغط أهل الكتاب لغطاً كثيراً حين جاوروا المسلمين فى المدينة بعد الهجرة، وأثاروا قضايا دينية مختلفة ، وكان لغطهم فى تلك القضايا التى أثاروها قائماً على الادعاء والخطأ . لهذا تصدى القرآن الأمين لكل ما أثاروه ولغطوا حوله، وفيما يأتى نبين مواقف القرآن الكريم من بعض أخطائهم وانحرافاتهم ؛ لأن الحديث عن كل ما أثاروه يضيق به المقام ــ هنا ــ وهدفنا من هذه الدراسة بيان سماحة الإسلام مع مخالفيه ، وهذا يكفى فيه التمثيل ما دام الاستقصاء غير ميسور، ونبدأ بهذه المسألة :

* ادعاء أهل الكتاب أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ؟

إبراهيم ــ عليه السلام ــ أبو الأنبياء، فمن ذُرِّيته إسماعيل عليه السلام جد العرب، وإسحاق أبو يعقوب، ومن يعقوب تفرعت أنبياء بنى إسرائيل وأسباطهم ، وقد سجل القرآن الأمين هذه المناقب لأبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام فقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[1] .

وكان وجود إبراهيم قبل أن يُنزل الله التوراة على موسى عليه السلام بزمن طويل، وقبل أن ينزل الإنجيل على عيسى عليه السلام بزمن أطول[2] ، ومكانته فى تاريخ أنبياء العهد القديم لم يرق إليها أحد منهم، لهذا حرص كل من اليهود والنصارى أن يكون منهم.

فاليهود ادَّعَوْا أنه كان يهودياً، والنصارى زعموا أنه كان نصرانياً .

وفى سورة آل عمران ــ المدنية ــ تصدى القرآن لهذه الدعوى فنفى ما ادعاه اليهود، ونفى ما زعمه النصارى وإليك البيان :

جادل اليهود والنصارى صاحب الدعوة ﷺ ، وجادلوا المسلمين فى أمر إبراهيم عليه

(١) العنكبوت : ٢٧

(٢) كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين إبراهيم وعيسى ألفا سنة .

السلام، كل منهم يزعم أنه من ملّته، فنزل الوحى حاسماً هذا الخلاف ومبطلاً دعاواهم : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وهكذا قطع القرآن عليهم الحُجَّة من أقصر طريق، إذ كيف يكون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً ولم تكن اليهودية ولا النصرانية معروفة فى عصره ، ومع هذا الاستدلال المفحم فقد عرَّض بهم القرآن ونسبهم إلى الحمق والسفه فى قوله: ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ؛ لأن هذه الدعوى لا يدعيها إلا من ذهب عقله .

ثم يخطو القرآن خطوة أخرى فى إبطال دعاواهم ، لأن أهل الكتاب قد يتمسكون بنسبهم ونسب أنبيائهم إلى إبراهيم ، وهذا حق ، ولكن القرآن يستبعد أن يكون للنسب السلالى وزن فى هذا المجال . فالاعتبار للاقتداء والتأسِّى فى الإيمان والعمل الصالح: ﴿إِنَّ أَوْلَى النّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِىُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ، وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

واليهود والنصارى لم يتبعوا إبراهيم ؛ لأن إبراهيم موحِّد وهم قد أشركوا بالله عزيراً وعيسى، وحرَّفوا الكتب المنزَّلة على أنبيائهم ، وادّعوا لأنفسهم ما لم يدعه نبى مقرب ولا رسول مرسل .

أما الذين اتبعوا إبراهيم فى حياته ، وبعد وفاته ، ومنهم خاتم الرسل ﷺ ، والمؤمنون بما جاء به ، فهم أَوْلى النَّاس بإبراهيم عليه السلام .

فانظر كيف ردّ عليهم القرآن مزاعمهم بأدلة عقلية وسنن إلهية، وكلها وسائل إقناع سلمية، لم تسل فيها دماء، ولم تحتدم حولها معارك، ولكنها حُجَج بّينات وكلمات حاسمات .

* *

---

(١) آل عمران : ٦٥ (٢) آل عمران : ٦٨

* تعميم الدعوى :

لم يكتف اليهود والنصارى بادعاء أنّ إبراهيم وحده كان يهودياً أو نصرانياً، بل عمّموا الدعوى حتى شملت إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وهم ذُرّية إبراهيم الأدنون ، وقد حكى القرآن الأمين دعواهم هذه فقال : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴾[1] .

هذه دعواهم .. لكن القرآن ذكرها موصولة بالرد عليها إذ قال الله لرسوله ﷺ: ﴿ .. قُلْ ءَ أَنْتُم أَعْلَمُ أَمِ اللهُ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ، وَلاَ تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

وحاصل الرد أنّ الله شهد لهؤلاء الأنبياء بالتوحيد والإسلام في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾[3].

وشهادة الله حق ، فهل أهل الكتاب أعلم من الله بأحوال أنبيائه ورسله ، هو يقول : مسلمون ، وهم يقولون : يهوداً أو نصارى؟[4] .

وأهل الكتاب يعلمون بشهادة الله لهم بالتوحيد والإسلام ومع هذا فهم يكتمون شهادة الله فلا أحد أظلم منهم . وتاريخ اليهودية ونشأتها تبدأ بإنزال التوراة على موسى عليه السلام . ونشأة النصرانية تبدأ بإنزال الإنجيل على عيسى عليه السلام . والأنبياء السابقون على موسى وعيسى أُمّة منفصلة لها كسبها عند الله، واليهود والنصارى غير مسئولين عمن سبقهم من الأمم . فكيف يكون هؤلاء الأنبياء يهوداً أو نصارى؟ وما كان لليهودية والنصرانية وجود في أعصارهم ؟!

---

(١) البقرة : ١٤٠ (٢) البقرة : ١٤٠ ـ ١٤١

(٣) البقرة : ١٢٨

(٤) يلاحظ أن القرآن هنا يخاطب أهل الكتاب في وقت حرفوا فيه عقائدهم .

هكذا بالدليل والبرهان أبطل القرآن مزاعمهم موكلاً حسابهم إلى الله يوم يقوم الناس لرب العالمين .

* *

* ادعاؤهم أنهم أبناء الله وأحباؤه :

من الدعاوى الجوفاء التى ادعاها اليهود والنصارى لأنفسهم أنهم أبناء الله وأحباؤه . قال هذا اليهود وقاله النصارى . إذ يحكى القرآن الأمين عنهم قولهم :﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾[1] . فكيف واجه القرآن هذه الدَّعْوى المفتراة ؟

فى الآية نفسها التى حكى فيها القرآن هذا الإفك عن اليهود والنصارى ، أمر الله رسوله أن يرد عليهم بما يكشف زيفهم ، ويزيل باطلهم : ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم، بَلْ أَنْتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .. ﴾[2] .

أى : إن كنتم أبناء الله وأحباؤه فلِمَ يؤاخذكم بما تقترفون من المعاصى والآثام ؟ ما أنتم إلا خلق كسائر البشر تجرى عليكم سُنن الله فى خلقه : يغفر لمن يشاء منهم ، ويعذب من يشاء ، ولو كنتم كما تدّعون لكانت لكم قداسة ترفعكم فوق البشر ؟

* *

* ادعاؤهم قصر الهدى على اليهودية والنصرانية :

من مزاعم أهل الكتاب التى أثاروها فى المجتمع المدنى بعد الهجرة: ادعاء اليهود أن الهُدَى ــ كل الهُدَى ــ مقصور على اليهودية التى هم عليها وحدها .

وادعى النصارى مثل هذه الدعوى، وقالوا: إنَّ الهُدَى وقف على النصرانية التى هم عليها وحدها .

وقد صوَّر القرآن الحكيم هاتين الدعويين فقال حاكياً عنهم : ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ .. ﴾[3] .

(١) المائدة : ١٨ (٢) المائدة : ١٨ (٣) البقرة : ١٣٥

أى قالت اليهود : كونوا هوداً تهتدوا ؟! وقال النصارى: كونوا نصارى تهتدوا ؟! كلّ منهم يدعى الهُدَى ويرمى مَن عداه بالضلال ؟! وهاتان الدعويان تتضمنان فرية أخرى: هى التفرقة بين رسل الله. فاليهود يؤمنون بأنبيائهم ويكفرون بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم والنصارى يؤمنون بعيسى « إله» ويكفرون بخاتم الرسل ﷺ .

* *

* مواجهة القرآن :

وقد واجه القرآن الحكيم هذه المزاعم مُعَرِّضاً باليهود والنصارى بأنهم ليسوا موحِّدين، فكيف يكونون على هُدَىً، والتوحيد الذى كفروا به هو أساس الهدى ؟ فقال فى الرد عليهم : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (1).

أى أن الهُدَى الخالص هو مِلَّة إبراهيم الذى رعى عقيدة التوحيد، ولم يكن مشركاً بربه شيئاً كما أشركتم أنتم فجعلتم عزيراً (اليهود) وعيسى (النصارى) وَلَدَين لله سبحانه وتعالى عما تقولون علواً كبيراً . واليهود والنصارى حين سمعوا هذا البيان يعلمون علم اليقين أنهم مشركون بالله ، فيتبين لهم فى خاصة أنفسهم أنهم كاذبون فى ادعاء الهدى .

* *

* التفرقة بين الرسل :

أما تفرقتهم بين الرسل على الوجه الذى تقدم فقد لقَّنَهُمْ فيها القرآن درساً شديد الوقع عليهم. جاء هذا الدرس ضمن خطاب الله للمسلمين : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(2).

(1) البقرة : ١٣٥

(2) البقرة : ١٣٦ ـ ١٣٧

لقد ارتكب أهل الكتاب خطأين لا يكون من ارتكب واحداً منهما على هدىً، فكيف بمن ارتكبهما معاً ؟ !.

والخطآن هما: الإشراك بالله سبحانه، ثم التفرقة بين رسله : يؤمنون ببعض، ويكفرون ببعض .

والإيمان الأمثل هو ما عليه المسلمون حيث لم يُشركوا بالله أحداً ولم يُفرّقوا بين رسله، فهم يؤمنون بكل مَن صحّت رسالته .

فإن آمن أهل الكتاب إيمان المسلمين فقد حققوا لأنفسهم الهدى فعلاً، وإن أعرضوا فهم فى شقاق لا يجامعه إيمان منج، ومهما لغطوا فإن الله حافظ رسوله ومن اتبعوه من مكايدهم، وهو السميع لكل ما يقال العليم بكل ما خفى أو ظهر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[1] .

هكذا حسم القرآن هذا الجدل الفارغ ، وأعطى المتلاعبين بحقائق الإيمان درساً قاسياً.

* *

* ادعاؤهم أن الجنة لن يدخلها إلا اليهود أو النصارى :

ومن الدعاوى الفارغة التى ادعاها اليهود والنصارى ـ كل على حدة ـ أن اليهود زعموا أن الجنة لن يدخلها إلا اليهود ، وحذا حذوهم النصارى فادعوا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان نصرانياً ، وقبح هذه الدعاوى أن أهل الكتاب زعموا أن من سلطتهم التدخل فى شئون الله ـ سبحانه ـ وتوزيع رحمته على من يشاءون. وهذا ما لا يدعيه عاقل أو مؤمن صحيح الإيمان لنفسه، فالله لم ولن يشرك فى حكمه أحداً.

وليس غريباً على قوم حرّفوا رسالات ربهم وعصوا رسله أن يأتى عنهم هذا الهذيان الساقط، واللغو المرذول .

---

(١) النساء : ١٥٠ ـ ١٥١

وقد ذكر القرآن الكريم هذه المقولة الصادرة عن الفريقين قارنًا بها الرد المفحم لهم جميعاً عليها فقال : ﴿ وَقَالُواْ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

فقد طالبهم القرآن أن يأتوا ببرهانهم على ما يقولون إن كانوا صادقين. والأمر فى «هاتوا» للإفحام والتعجيز، لأنهم ليس لهم برهان قط على مدعياتهم.

وبعد تكذيب مزاعمهم عمد القرآن إلى بيان سُنَّة الله الخالدة فى خلقه ، وأساس العدل الإلهى الذى يعامل به العباد ، فليس الأمر كما قالوا : عنصرية دينية وراثية لاحظ لها من الفقه والإذعان ، وإنما أساس العدل عند الله هو الإيمان والطاعة وإخلاص الوجه لله :

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢) .

فليقل اليهود ما شاءوا ، وليقل النصارى ما شاءوا . فأمر الله ليس بأمانِّى أحد من خلقه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَيَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًا وَلاَ نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ، وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾(٣) .

* *

* أشنع جرائم أهل الكتاب، وكيف ووجهت ؟

ذلك طرف يسير من مزاعم أهل الكتاب التى واجهتها الدعوة بالوسائل السلمية، بَيْدَ أن أشنع جرائم أهل الكتاب ادعاؤهم الولد والشريك لله ــ سبحانه ــ ومع فظاعة هذه الجريمة فإن منهج الدعوة الإسلامية فى مواجهتها لم يخرج عن سمته الوقور، وما عُرف به من التصدى لهم بالحُجَّة الهادئة ، والبرهان الرزين ، والإخلاص فى النصح والإرشاد

---

(١) البقرة : ١١١ ــ ١١٢ (٢) البقرة : ١١٢ (٣) النساء : ١٢٣ ــ ١٢٥

والتوجيه، دون أن يدعو إلى سفك دماء ، أو سوء معاملة ، وإنما بصرّهم بالحق وزيّنه لهم، وأغراهم على قبوله . وقبّح لهم الباطل وحذّرهم من سوء المصير فيه ، وفتح لهم أبواب التوبة ، والإنابة إلى الله على مصاريعها لعلهم يؤمنون .

ففي مواجهة النصارى المدّعين بنوة عيسى لله ــ سبحانه ــ حذّرهم القرآن من مغبة هذا الافتراء، لكن دون أن ينسبه إلى النصارى صراحة، بل أخرج الحديث مُخْرج العموم ، وفى ذلك تلطُّف معهم فى الخطاب وتأليف لقلوبهم . ومسلك حكيم للدعوة فى ملاينة الخصوم ، ورسم خطة سديدة للخروج من مضايق الشرك والضلال . وهذا ما نراه فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

تأمل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا.. ﴾ حيث لم يقل : لقد كفر النصارى ــ مع أنهم هم القائلون ــ أليس فى ذلك ملاطفة معهم فى الخطاب على فظاعة قولهم وشناعة كفرهم؟

ثم تمضى الآية فى تكذيبهم ويأمر الله رسوله أن يقول على الملأ : إن الله ليس له ولد ولا شريك ، وعيسى الذى دعوه « الله » ــ سبحانه ــ إن أراد الله الحق أن يهلكه ويهلك معه أمه ، ومَن فى الأرض جميعاً فلن يملك أحد دفع ما أراده الله . فالله هو المالك المتفرد فى مُلْكه له ما في المُلْكِ كله . وإن كان قد خلق عيسى من غير أب فليس معنى ذلك أن عيسى إلَه ، فالله يخلق ما يشاء كيف يشاء ؛ لأنه على كل شيء قدير .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ، خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] .

ومعنى هذا : أن خلق إنسان من غير أب لو كان سبباً فى جعله إلهً لكان آدم أولى من

---

(١) المائدة : ١٧ (٢) آل عمران : ٥٩

عيسى بهذا الوصف ؛ لأنه مخلوق من غير أب ولا أم ؟! وفى هذا إشارة ذكية لنسف مدعيات النصارى ، وتوجيه حكيم لإراءتهم الحق فى أجلى مجاليه .

* *

* تحذير وأمـــل :

وفى الآيات الآتية تحذير لهم بعد تحذير ، وأمل باسم يدعوهم القرآن للإقبال عليه ، مع إشارات وضيئة تبين لهم سوء معتقدهم ، ترى ذلك كله فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ، إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ، كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا ، وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[1] .

فهذا هو المسيح عليه السلام يدعو بنى إسرائيل إلى عبادة الله وحده ويقرر بأن الله ربه وربهم ، فكيف يدّعى النصارى لعيسى ما لم يدعه لنفسه ؟!

ومع التسجيل عليهم بهذه الشناعات، وتهديدهم المرة تلو المرة من الاستمرار على هذه العقائد الموغلة فى البطلان والفساد ، يفسح أمامهم الأمل ليتوبوا قبل فوات الأوان، وأنهم إن تابوا قبل الله توبتهم بمنه وكرمه ؛ لأنه غفور رحيم .

ثم يضع بين أيديهم الإشارات المضيئة التى تمهد لهم الطريق للإقلاع عما هم فيه ، والإذعان للحق قبل فوات الأوان :

---

(١) المائدة : ٧٢ ـ ٧٦

١- فالمسيح يقر بعبوديته لله ، وأن الله ربه ورب العالمين .

٢- ثم يحذر المشركين من الخلود فى النار وفقد النصير .

٣- يؤكد لهم القرآن أن المسيح رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأُمه بارة تقية ، وهما كانا من البشر يأكلان ويشربان كما يأكل البَشر ويشربون وليسا بإلهين؛ لأن الكون كله ليس فيه إلا إلهٌ واحد .

٤- ثم يلفت أنظارهم إلى ضلال مسعاهم، وكيف يعبدون من دون الله من هو عاجز مثلهم لا يملك لنفسه ولا لهم مثقال ذَرَّة من الضر أو النفع ؟

﴿ لَّن يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لله وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِه وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِه، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾[1] .

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لله أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ، سُبْحَانَهُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[2] .

بهذا البيان، وبهذا الوضوح واجه القرآن العظيم مزاعم أهل الكتاب بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولو كان الإسلام دين إرهاب وعنف لعجل بالقضاء عليهم ، ولأغرى المؤمنين بهم، ولكنه أخلص لهم فى النصح ووضع فى أيديهم براهين ودلائل سلمية لو فحصوها وتأملوها وعملوا بمقتضاها لكانوا من السعداء فى الدنيا والآخرة .. ولكن .. ؟

* *

* عَدْلٌ وإنصاف:

فى القرآن الكريم مبدأ عظيم من مبادئ العدل والإنصاف ، أمر الله به جماعة المسلمين

---

(١) النساء : ١٧٢ - ١٧٣ (٢) مريم : ٣٤ - ٣٦

وفيه يقول رب العزة : ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ، اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُواْ اللّهَ، إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

أى : لا يحملكم بغض قوم على ظلمهم ، بل اعدلوا فى كل الأحوال لا فرق بين عدو وصديق ؛ لأن العدل من ثمار التقوى، والتزموا بتقوى الله فى السر والعلن ، لأن الله لا يخفى عليه من عملكم شيء .

هذا المبدأ العظيم سمة بارزة من سمات سماحة الإسلام ، والقرآن قد التزم به مع أبغض الطوائف إلى الله ، قبل أن يجعله أصلاً من أصول الحكم العادل للجماعة المسلمة .

لذلك فإنك تراه مع الانحراف الخطير الذى وقع فيه اليهود والنصارى ــ عقيدة وسلوكاً ــ يستثنى جماعات منهم ، ويُثنى عليهم بكل خير ، ويذكر لهم مناقبهم الفاضلة، ومحاسنهم عقيدة وسلوكاً ؛ لأن الأساس في الإسلام هو الكسب الشخصي ، وليس التعصب الدينى أو الجنس أو اللون : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2] .

وفى السطور الآتية نماذج ناطقة من سماحة الإسلام من حديث القرآن عن مؤمنى اليهود والنصارى، وسيرتهم النبيلة العطرة : ﴿ ... وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم، مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[3] .

فهم لم يكونوا كلهم فاسقين مشركين ، بل منهم المؤمنون الحسنو الإيمان: ﴿ لَيْسُواْ سَوَاءً، مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ، وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾[4] .

---

(١) المائدة : ٨
(٢) الحجرات: ١٣
(٣) آل عمران: ١١٠
(٤) آل عمران : ١١٣ ــ ١١٥

فليس أهل الكتاب كلهم سواء فى فساد العقيدة وسوء السلوك ، بل منهم ــ كما قال الكتاب الأمين ــ أُمة لا يفرق بينها وبين صالحى المؤمنين فارق بل هم مع صدق إيمانهم يعملون أُمهات الفضائل من أمر ونهى ومسارعة فى الخيرات . هكذا يسجل لهم القرآن فضائلهم ، ولم يظلمهم شيئاً .

ويؤكد القرآن هذا المعنى مرة أخرى فيقول : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لاَيَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً، أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(١) .

وفى شأن اليهود خاصة يقول : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾(٢) .

إن تاريخ اليهود لم يكن كله مظلماً، بل مرَّت بهم حقب عرفوا فيها التوحيد الخالص فتلك تحسب لهم ، أما فترات النكسة ، والارتداد عن الحق فتخيم على أكثر تاريخهم النبوي ، وقد حدث هذا مبكراً فى عهد موسى عليه السلام . إذ اتخذوا من العجل إله لهم من دون الله وموسى بين أظهرهم ؟ ولم يكونوا كلهم مجرمين ، فمنهم جماعة ــ أمة ــ كما يقول القرآن كانوا صحيحي الإيمان وصادقيه ، وهذا ما تسجله لهم هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ هكذا ينطق القرآن بكل أمانة وصدق ؛ لأنه كتاب هداية وتسامح .

وفى النصارى خاصة يقول وهو يتحدث عن أهل الكتاب عموماً وعن المشركين : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَيَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٣) .

---

(١) آل عمران : ١٩٩ (٢) الأعراف : ١٥٩ (٣) المائدة : ٨٢ – ٨٥

تأمل سماحة الإسلام كيف بدت فى هذا البيان المنصف الأمين .. إن بعض النصارى ــ هنا ــ يثنى عليهم القرآن هذا الثناء العطر الجميل، فيكشف عن صدق إيمانهم ويصوّر خشوعهم فى خلواتهم والدمع يفيض من أعينهم فيضان الأنهار ، رغبة فيما عند الله ورهبة من مكره ، ولا يترك الحديث عنهم حتى يدخلهم جنات النعيم مخلدين فيها ؛ لأنهم محسنون، وذلك جزاء المحسنين .

* *

* سماحة نادرة :

وقد سجل القرآن الكريم سماحة نادرة حول اتهام رجل من اليهود بالسرقة ظلماً، وكان المتهم له بها بعض المسلمين دفاعاً عن السارق الحقيقي ، وهو رجل مسلم منهم، ورُفع الأمر إلى صاحب الدعوة ﷺ وهَّم بقطع يد اليهودى ــ زيد بن السمين ــ وتبرئة السارق الحقيقي المسلم ــ طعمة بن أبيرق ــ من بنى ظفر[1] .

ولكن قبل أن يقيم صاحب الدعوة الحد على المتهم اليهودى البرىء نزل الوحى الأمين يجلجل بهذه الآيات المباركات :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَا أَنتُمْ هَؤُلاَءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً * وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[2] .

---

(١) راجع تفاصيل القصة في كتب التفسير، في تفسير سورة النساء الآية (١٠٥) وما بعدها.

(٢) النساء : ١٠٥ ــ ١١٢

لقد نصّب القرآن نفسه محامياً ومدافعاً بالحق والصدق عن رجل يهودي ، يؤمن إيمان اليهود ، ويلغط لغطهم ، ويفترى على الله ورسله كما تفترى الطائفة التى ينتمى هو إليها ، ينسب لله ــ سبحانه ــ الصاحبة والولد ، ويؤمن بالتاريخ الدموى لليهود حتى على أنبيائهم ورسلهم ويقول كما يقولون: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [1]، و﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾[2] ومع هذا يأبى الإسلام أن يقع عليه ظلم وهو برئ . فأى سماحة هذه ؟ وفى أى دين أو نظام نجد لها مثيلاً .

أما الذين ترافع ضدهم القرآن ــ إن جاز هذا التعبير ــ فهم مسلمون مؤمنون موحّدون ؟ يصلّون ويصومون ويحجون . ومع هذا ترافع القرآن ضدهم ، ولامهم أقسى ما يكون اللوم، ومَن يراجع القصة مفصّلة فى كتب التفسير يتبين له عدل وإنصاف وسماحة هذا الدين العظيم ، كأخلص ما يكون العدل ، وأروع ما يكون الإنصاف، وأسمح ما تكون السماحة . فليرنا الذين يصفون الإسلام أنه دين الإرهاب والعنف وسفك الدماء ، ومصادرة الحريات ليرنا هؤلاء سماحة تدنو من سماحة الإسلام ، وعدلاً يقارب عدل الإسلام ، وإنصافاً يضارع إنصاف الإسلام ؟

هذا هو ديننا المنزَّل بعلم الله ، المحفوظ بقدرة الله . فهل عند الخصوم بضاعة كبضاعتنا؟ ألا فلينثروا ما فى كنانتهم إن كان لهم كنانة ، وفيها نبال وسهام .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ، أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾[3] .

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4] .

* *

(١) المائدة : ٦٤
(٢) آل عمران : ١٨١
(٣) الشورى : ٥٢ ــ ٥٣
(٤) المائدة : ١٥ ــ ١٦

* التى هى أحسن :

ومن سمات سماحة الإسلام مع مخالفيه من أهل الكتاب أن الله تعالى نهى المسلمين أن يبدأوهم بالجدل فى أمور العقيدة والدين ، وأداً للفتنة فى مهدها . فإن اضطررنا لمجادلتهم، كأن يبدأونا هم فجدالنا لهم مقيد بضابط حكيم لا يقل أثراً عن ترك الجدل معهم فى وأد الفتنة وإيغار الصدور ، وهو أن نلتزم فى الجدل معهم ــ إذا اضطررنا إليه ــ بأحسن مناهج الجدل وأبعدها عن الإثارة والتهييج ، مع طرح مبادئ من شأنها أن تؤلف بيننا وبينهم، مع الحذر ــ كل الحذر ــ أن يفتنونا عما أنزل الله إلينا .

والنصوص القرآنية فى هذا المعنى متعددة نكتفى منها بما يأتى :

﴿وَلاَ تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ، وَقُولُواْ آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1].

انظر إلى أى مدىً يترفق القرآن مع أهل الكتاب وهم يناصبونه العداء ..

فصدر الآية : ﴿وَلاَ تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يفيد أن الأصل ترك جدالهم والإعراض عنهم .

ثم يستثنى من هذا الأصل ــ ترك الجدال معهم ــ حالة واحدة ، هى الجدال بالتى هى أحسن. أى لا يثير فتنة ولا يوغر صدوراً، ولا يورث أحقاداً.. ثم يستثنى من هذه الحالة المستثناة ــ الجدال بالتى هى أحسن ــ حالة واحدة كذلك ، هى معاملة الذين ظلموا منهم بمثل ما يعاملوننا به .

ثم انظر ــ مرة أخرى ــ إلى ما تشير إليه الآية من طرح مبادئ وأصول من شأنها أن تؤلف بيننا وبينهم :

فأولاً : قولوا لهم : آمنا بما أنزله الله علينا : القرآن ، وبما أنزله عليكم : التوراة والإنجيل ــ كما تلقاهما موسى وعيسى عليهما السلام ــ من ربهما .

وثانياً : قولوا لهم : إن إلهنا وإلهكم واحد ، هو الله .

---

(١) العنكبوت : ٤٦

وثالثاً : قولوا لهم : نحن لهذا الإله الواحد ـ الله ـ مسلمون .

ثم انظر ـ مرة ثالثة ـ كيف قال: ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ولم يقل : بالحسنى . وهذا معناه : أن نتوخى معهم أحسن مناهج الجدل وأحبها إلى النفوس ، فكون المنهج حَسَناً فى نفسه لا يكفي . بل المطلوب هو المنهج الأحسن ، وهذا معناه مرة أخرى أن الذى يمارس مهمة الجدل معهم لا بد أن يكون عالماً متمكناً فاقهًا لأساليب الدعوة ، مدركاً للتفاوت بينها ، فلا يجهل عليهم ولا يبذؤ فى القول معهم، وإنما يكون جداله فى الإطار العام الموضوع للدعوة : بالحكمة والموعظة الحسنة . وذلك لأن المقصود من الدعوة فى الإسلام واحد من أمرين :

إما الإقناع والاستمالة إلى الحق المدعُوّ إليه . .

وإما إقامة الحُجَّة للّه على المدعو برفق وهدوء .

وتلك هى اللغة الوحيدة التى تغزو القلوب وتهزها من أعماقها وتجذب النفوس وتنتشلها من أوهامها، وتقنع العقول وتطهرها من عنادها ومكابراتها .

وفى هذا الشأن يقول الله تعالى لرسوله الكريم : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ..﴾[1] .

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[2] .

جاءت هاتان الآيتان عقب حديث للقرآن عن جرائم اليهود القدامى التى توارثها عنهم يهود عصر النزول .

وفيهما يُثَبِّت الله رسوله على الحق الذى أنزله إليه ، ويأمره أن يحذر اليهود إذا أرادوا

(١) آل عمرآن : ١٥٩ (٢) المائدة : ٤٩ ـ ٥٠

أن يفتنوه عن بعض ما أُنزل إليه ، ومع ذكر الجرائم التى ارتكبها أجدادهم وتابعوهم هم عليها فإن القرآن لم يأمر بشن الحرب عليهم ، وإنما تساءل فى إنكار عنيف عن الحكم الذى يريدونه وهو حكم الجاهلية : أفحكم الجاهلية يبغون ؟ إن هذا السفه ما وراءه سفه ؛ لأن حكم الله المنزل أحسن حكم للناس : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ؟

وهذا توجيه من الله لرسوله، لئلا يضيق ذرعاً بمكايد اليهود، فما عليه إلا أن يقابل أباطيلهم بذكر الحق دون أن يُعْمل فيهم سلاحاً ، أو لا يرى لهم وجوداً معه فى المدينة ما داموا لم يؤمنوا ، وفى موضع آخر يذكرهم القرآن بأشنع جرائمهم الموروثة والحاضرة ـ أى التى ارتكبها اليهود فى عصر الرسالة الخاتمة ـ ثم يفتح أمامهم أبواب التوبة، ويحذرهم ـ فى هدوء ـ من سوء المصير إذا لم يذعنوا للحق المنزل على خاتم الرسل ﷺ :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا * مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً * إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ، وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[1] .

ولكى نتبين عظم سماحة الإسلام مع اليهود نسجل هذه الجرائم التى نسبها إليهم القرآن فى هذا البيان الأمين .

---

(١) النساء : ٤٤ ـ ٤٨

فأولاً : اختيارهم الضلالة على الهدى ومحاولاتهم توريط المسلمين فى مثل هذا الضلال الذى هم فيه . وهذه الجريمة ارتكبها اليهود المعاصرون لنزول القرآن .

ثانياً : تمردهم القبيح السافر على الحق المنزل على خاتم الرسل ، وجهرهم بالعناد فى قولهم : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ .

ثالثاً : دعاؤهم على صاحب الدعوة ﷺ بالطرش في قولهم : ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أى مدعوًا عليك بـ « لا سمعتَ » .

رابعاً : شتمهم له ﷺ فى قولهم : ﴿ رَاعِنَا ﴾ وهى فى اللغة العبرية بمعنى : يا أحمقنا .

وخامساً : طعنهم فى الدين الذى أرسل به خاتم الرسل .

مع هذه الجرائم الفظيعة لم يسلك معهم الإسلام إلا الإرشاد القولى بالوسائل السلمية. ترى ذلك فى رد القرآن عليهم وفي تعقيبه على قولهم بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أى مكان : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ، وقالوا : ﴿ وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا ﴾ أى بدل : ﴿ واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا ﴾ (١) .

لو قالوا هذا بدل قولهم القبيح لكان فيه خير لأنفسهم ، وإصلاح لفسادهم عقيدة وسلوكاً .

ثم يطوى القرآن هذه القبائح ويتوجه إليهم بالنصح والإرشاد ويحذرهم من مغبة ماهم فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوْا الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم .. ﴾ (٢) فهو لم يأمرهم بإيمان غريب ليس معهوداً ولا معروفاً لهم . فالتوراة التى أنزلها الله على موسى معهم وبين أيديهم ، وفيها دعا موسى إلى عقيدة التوحيد وبشَّرَ بالرسالة الخاتمة ــ الإسلام ــ وصاحبها ــ محمد ﷺ ــ فلِمَ لا يؤمنون بالحق الذى يعرفونه من الكتب التى بين أيديهم؟(٣) .

---

(١) النساء : ٤٦ (٢) النساء : ٤٧

(٣) وفي هذا دليل قطعي على أن البشارة برسول الإسلام كانت موجودة في كتب اليهود السماوية، وكانوا يرجون أن الرسول الجديد الخاتم سيكون منهم. فلما بعثه الله من العرب محوا البشارة به من التوراة حسداً وتحريفاً لكلام الله .

أو من لعنة مثل لعنة أصحاب السبت من اليهود الذين حرَّم الله عليهم العمل فيه وأمرهم بأن يخصوه بالعبادة وحدها . فخالفوا فلعنهم الله .

ثم يبين لهم أن الشرك الذى هم فيه أعظم الذنوب ، وأن الله لا يغفره لأحد، ويغفر مادون الشرك لمن يشاء .

إن الدعوة إلى الإسلام كانت تقابل بذاءات أهل الكتاب بالحسنى ولاتجاريهم فى حماقاتهم وبذاءاتهم بل تقتصر على بيان الحق الذى يجب الإيمان به ، وتفنيد الباطل الذى يشغبون به فى وجه الحق ، ولم يحدث أن دعا القرآن المسلمين لقتالهم لمجرد أنهم رافضون للإذعان للحق ، وما شهر فى وجوههم سلاحاً ، ولا استباح أموالهم إلا حين تآمروا على الإسلام وبدأوا العدوان على المسلمين . فأين الإرهاب والعنف وسفك الدماء ومصادرة الحريات التى يتهمون بها الإسلام فى الغرب ـ ومعهم عملاؤهم من الشرق ـ أليست هذه فريات ليس لها فى منهج الإسلام ولا فى سيرته سند، ولا دليل ؟

ومن شواهد سماحة الإسلام مع أهل الكتاب ـ يهوداً ونصارى ـ لفت أنظارهم فى لين ورفق فى كثير من الآيات . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ، فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ، وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ، انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ، إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾[2] .

إن الشعار الذى يردده المبشرون والمستشرقون كثيراً، وهو: « أسلموا أو تقتلوا » شعار

(١) آل عمران : ٩٨ - ٩٩ (٢) النساء : ١٧١

كاذب ، والذين يرددونه يعلمون أنه شعار كاذب ، ولكن كراهية ما أنزل الله على خاتم رسله هي التي تملى على هؤلاء وأعوانهم هذه الأحقاد والسموم . إن شعار الإسلام الحق في هذا المجال هو قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، قَدْ تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. ﴾[1] .

* * *

(١) البقرة : ٢٥٦

* الصبر والعفو :

ومن أكرم مظاهر السماحة فى الإسلام مع أهل الكتاب أن كتاب الله العزيز يأمر المسلمين بالصبر على أذاهم ، والعفو عن بذاءاتهم ، بل إن العفو يتجاوز حدود المعاملة مع أهل الكتاب إلى غيرهم من المشركين وجميع الطوائف المخالفة للإسلام . ومن توجيهات القرآن الكريم فى هذه المجالات قوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا، وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

ومما يُعَد مضرب الأمثال فى السماحة ورحابة الصدر ، ما أمر الله به رسوله ﷺ ليواجه به أهل الكتاب ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾[3].

إن كل كلمة فى هذا البيان تنم عن خُلُقِ الإسلام الأصيل ومواقفه النبيلة من مخالفيه، مهما كان الخلاف . ومهما كان الأذى القولى الموجّه للإسلام والمسلمين معاً ، لا يقيم وزناً لسفههم وحماقاتهم ، يقابل ذلك بصدر رحب ، مع سوق الموعظة الحسنة وإيراد الدليل المقنع حول كل مسألة يثيرون الخلاف فيها ، إن ديناً هذا منهجه ليلقن الإنسانية جمعاء درساً فى الصفح والتسامح الكريم ولن يضيره بعد هذا حقد حاقد، ولا عداء موتور.

* * *

(١) آل عمران : ١٨٦ (٢) البقرة : ١٠٩ (٣) الشورى : ١٥

جسور متينة من التواد

لم يكن ما تقدم فى شأن أهل الكتاب هو كل مواقف الإسلام السمحة معهم، بل إن للإسلام مواقف أخرى تفيض وُدّاً وأُلفة. فقد مدّ الإسلام بينهم وبين المسلمين جسوراً مبينة من التواد والتسامح لم يحظ المسلمون بنظير لها منهم ، فكان الإحسان من طرف واحد ــ هو الإسلام ، مع إصرار القوم فى كل زمان ومكان على إضمار أبشع صور العداء له ، وهو هو ماضٍ فى طريقه غير نادم على ما فعل معهم منهجاً وسيرة .

فمن مظاهر التكريم لهم أن القرآن إذا تحدث عنهم سماهم : « أهل الكتاب » فى أكثر المواضع التى تحدّث فيها عنهم ، دون أن يدعوهم بأنهم كافرون أو مشركون، ومن يرجع إلى آيات الذكر الحكيم يهوله كثرة ما ورد فى شأنهم من الوصف بـ « أهل الكتاب » .

وأحياناً يتحدث عن اليهود باسمهم : « اليهود » ، أو « الذين هادوا » وعن النصارى ــ كذلك ــ باسمهم : « النصارى » أو « الذين قالوا : إنَّا نصارى » ، وفى الحديث عنهم بهذه الطريقة تكريم لهم وأى تكريم ، واستمالة لأنفسهم وأى استمالة ، لأن فيها إطراح الأوصاف الأخرى كالكفر والشرك ومن شأنها أن توغر الصدور، وتثير الأحقاد. اللهم إلا فى المواضع التى يتحتم فيها النص على الحكم الشرعى إذا أسند إليهم قول أو فعل ينافى عقيدة التوحيد ، وحتى فى هذه الحالة قد يقترن الخطاب بما يخفف عنهم من وطأة الحكم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ .. ﴾ [1] فقد عبَّر عنهم هنا ــ وهم النصارى ــ بالموصول والصلة : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا .. ﴾ ولم يذكر اسمهم الصريح .

ومن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب ــ جميعاً ــ أن أحلَّ لهم طعام المسلمين وأحلّ طعامهم للمسلمين، وفى ذلك فتح لأبواب التواد والتعاطف والتراحم وبتبادل صنائع الود والمعروف : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ .. ﴾[2] .

---

(١) المائدة : ٧٣ (٢) المائدة : ٥

وكما أحلّ طعامهم للمسلمين ، وأحل طعام المسلمين لهم أحلّ نساء أهل الكتاب للمسلمين استثناءً من الأصل التشريعي العام : ﴿ وَلَاتُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ.. ﴾[1] .

فقال في نفس الآية التي أحل فيها الأطعمة بين المسلمين وأهل الكتاب : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَامُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾[2].

فقد وضع القرآن النساء العفيفات من أهل الكتاب على قدم المساواة مع المسلمات العفيفات ، وأحلّهن جميعاً للمسلمين إذا خلون من الموانع وبُذلت لهن أجورهن ـ مهورهن ـ فلا حَرَج إذاً من قيام مصاهرات شرعية نظيفة بين المسلمين واليهود والنصارى. أما الزنا والسفاح واتخاذ العشيقات فهذا مقت وفاحشة حرَّم الله على عباده ـ مسلمين وغير مسلمين ـ اقتراف شيء منه مع مسلمة أو يهودية أو نصرانية أو مجوسية أو أى امرأة كانت .

لقد هيأ الإسلام لأهل الكتاب فرص الاندماج فى المجتمع الإسلامى ...

زيارات يتبادلون فيها تناول الأطعمة ، وزيجات ومصاهرات تقوى بها الروابط بين الأسر من المسلمين واليهود والنصارى ، ومودات وصور من التعاون والعلاقات الإنسانية والاجتماعية تجمع ولا تفرق . تؤلف ولا تنفر . فما الذى يطلبه الحاقدون على الإسلام بعد هذا التودد والتأليف ؟! عجب ـ واللهِ ـ عجب .

* *

* النـداء الخالـد :

قبل أن نودع حديث القرآن عن أهل الكتاب، نود أن نضع بين أيدى القراء ما عنّونا له بـ « النداء الخالد » وهى آية آثرنا أن نختم بها هذا الحديث ؛ لأنها مسك الختام ـ أو ختام المسك إن صحَّ هذا القول ـ وهى قوله تعالى الذى أمر المسلمين أن يقولوه لأهل الكتاب

(١) الممتحنة : ١٠

(٢) المائدة : ٥

كلما طرأت فكرة التقارب أو التعايش السلمي بين الشعوب والأمم : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

ذلك هو الإسلام: يفتح صدره للجميع، ويمد يده للجميع، ويدعو للسلام للجميع فهل من سميع أو مجيب ؟

* * *

(١) آل عمران : ٦٤

الظاهرة الثانيـــة

مواقف الدعوة السلمية من النفاق والمنافقين

النفاق مرض اجتماعى خطير، وسرطان يمزق العلاقات بين الشعوب والأفراد ، ونتيجته فى الحياة فقدان الثقة، وإحلال سوء الظن مكان حسن الظن بين الناس، وهو أخس وسائل التعامل فى المجتمعات .

والمنافقون شياطين الإنس بلا نزاع، وقدوة سيئة لغيرهم من الناس ، والنفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع ، وهى دويبة ماكرة لئيمةٌ : تجعل لبيتها ، وهو حفرة فى الأرض ـ بابين : أمامياً وخلفياً . فإذا طلبها الصياد هرولت فدخلت بيتها من أحد بابيه ، فيقف الصياد قريباً من الباب الذى دخلت منه مترقباً خروجها ، بينما تكون قد خرجت من الباب الآخر دون أن يبصرها أحد ، خداعاً ودهاءً ومكراً .

وهكذا المنافقون يتلاعبون فى تعاملهم من الناس، ويتخذون عدة مداخل ومخارج للوثوب والهروب، يلاقون هذا بوجه، وذاك بوجه يحلفون وهم كاذبون ، يضحكون وهم يمكرون. كلامهم حلو ، وفعلهم علقم وصاب ، يعرفون من أين تؤكل الكتف ، وكيف تؤكل، ولا وزن عندهم للشرف ومكارم الأخلاق .. وبواعث النفاق هي : الطمع والخوف، وسمته هى الخسة والدناءة .

* *

قسما النفاق :

والنفاق قسمان : نفاق عقيدة ، وصاحبهُ يبطن الكفر ويُظهر الإيمان ، ونفاق سلوك، ويكون بين المسلمين دون غيرهم . كأن يعمل المسلم الأعمال الصالحة ولا يريد بها وجه الله ، ولكن ليقول الناس إن فلاناً رجل صالح ، وقد يتخذ نفاق السلوك مطية لتحقيق مطالب دنيوية عاجلة ، وهذا النوع من النفاق منتشر الآن فى المجتمعات الإسلامية ، ومنه التظاهر بحب إنسان : رئيس أو ذى جاه أو ذى مال أو ذى منصب .

* *

* النفاق الذى واجهته الدعوة :

لم يظهر النفاق فى العقيدة و السلوك ، إلا فى المجتمع المدنى بعد الهجرة فقد ظهرت قوة المسلمين فى المدينة ، والنفاق ينمو كثيراً فى ظل القوة ، فلجأ فريق من الكفار والمشركين لإخفاء كفرهم وشركهم ، وتظاهروا بأنهم مسلمون رهبة ورغبة : رهبة من قوة المسلمين ، ورغبة فى دفع الشر عن أنفسهم ، وجلب النفع لها ، وبذلك استطاع المنافقون أن يندسوا فى تجمعات المسلمين، ويغشون مجالسهم ويؤدون معهم شعائر الدين من صلاة وحج ، ويحضرون مجالس مشورتهم ويطلعون على أسرارهم ولا يتراخون لحظة فى تدبير المؤامرات ضد الإسلام والكيد له بما استطاعوا من الحيل بعد أن اتخذوا من النفاق غطاء لكفرهم وسوء مقاصدهم ، ولا ريب أن نفاق العقيدة كفر بل هو أشنع من الكفر الظاهر ؛ لأنه جمع الكذب والخداع إلى أصل الكفر .

ونفاق العقيدة الذى واجهته الدعوة لم ينسلخ عن نفاق السلوك ، فالمنافقون كانوا يحرصون على أن يبدوا أمام الناس فى سمت الصالحين من عباد الله؛ يذكرون الله بألسنتهم وقلوبهم أحلك من سواد الليل. وهم ـ فى الواقع ـ أشد خطراً على الإسلام وعلى المسلمين من الذين أعلنوا كفرهم أمام الله والناس واعتزلوا المسلمين .

* *

* كيف واجه الإسلام ظاهرة النفاق والمنافقين ؟

لم يُصدِر القرآن حكماً بإعمال السلاح فى رقاب المنافقين، للقضاء على دابرهم ، ولم يحل بينهم وبين حقوقهم فى الحياة ، ولم يصادر حرياتهم لا فى قول ولا فى فعل ، ولكنه وقف منهم موقفاً سلمياً فاقتصر دوره على فضح مؤامراتهم ، وكشف أسرارهم ، وتحذير المسلمين من الانخداع بهم ، وتهديدهم بسوء المصير، ونهى الله صاحب الدعوة عن الركون إليهم والصلاة عليهم إذا ماتوا، ثم الاستغفار لهم أحياءً وأمواتاً .

كما أمره بجهادهم والإغلاظ عليهم فى الجهاد، والجهاد ـ هنا ـ لا يعنى القتل والقتال وإسالة الدماء فى كل حال . وإنما هو جهاد بالكلمة والدليل والبرهان، وهذا هو منهج

الإسلام مع خصومه، ما لم يبدأوا هم بالعدوان ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1] .

وفى سورتى الأحزاب والتوبة تصدى القرآن ـ سلميًا ـ لكثير من ألاعيب المنافقين فى حدود الإطار العام لموقف الدعوة منهم .

فقد أرجف المنافقون إرجافًا شنيعًا وقت غزوة الخندق التى تحالفت قريش مع من استطاعت من قبائل العرب على غزو المدينة مقر الدولة الإسلامية الناشئة، وهى المعروفة بغزوة الأحزاب . وكان هدف المنافقين صد الناس عن الخروج مع صاحب الدعوة ؛ لإضعاف قوته ، وتمهيدًا لانتصار قريش وحلفائها عليه .

فكانوا يشيعون روح التخاذل ويكذّبون وعد الله ورسوله ويقولون : ﴿ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾[2] .

ثم يُحرّضون الناس على الإنسلاخ من قوات الدعوة وينصحونهم بالعودة إلى المدينة ويقولون : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾[3] .

ويبدأون بتنفيذ مؤامرتهم الدنيئة فيستأذنون النبى فى الرجوع إلى المدينة من ميدان القتال بدعوى حماية أموالهم وأسرهم من اللصوص : ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ، إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾[4] .

فماذا صنع القرآن إزاء هذا كله ؟ لم يخط نحوهم خطوة واحدة فيها أمر بقتالهم والإطاحة بأعناقهم ، وسبى نسائهم وذراريهم ومصادرة أموالهم ودورهم ، أو حتى حرمانهم من حقوقهم المدنية ، بل اقتصر دوره على تكذيبهم وكشف الأسباب الحقيقية لهروبهم ولتثبيط همم الناس ...

ادعوا أن بيوتهم عورة فقال القرآن : ﴿ وَمَاهِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ ، ثم أفصح عن السبب الحقيقى الذى حملهم على ما صنعوا : ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ ، وأنهم بسبب نفاقهم

---

(١) التحريم : ٩
(٢) الأحزاب : ١٢
(٣) الأحزاب : ١٣
(٤) الأحزاب : ١٣

لو اقتحم عليهم العدو دورهم ثم طلب منهم الانقضاض على النبى وصحبه ، والإعلان عن كفرهم صراحة لما تلكأوا لحظة فى إجابة ما طلبه العدو منهم : ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَا إِلاَّ يَسِيراً ﴾ (١) .

ثم يأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم : ﴿ .... لَن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (٢) .

ثم تابعت السورة كشف خباياهم حتى الآية رقم (٢٠) ، ومع هذا ظل المنافقون فى المدينة بعد هذه الجرائم يتمتعون بكل حقوقهم فى الحياة ويتنقلون بين أرجائها فى حريات كاملة .

ترى : لو حدث مثل ما فعلوه ضد أى نظام حكم معاصر ، ماذا يحدث من النظم الحاكمة ؟

المصير معروف : عمالة - تعاون مع العدو - هروب من الميدان - خيانة كبرى للوطن - التحريض ضد النظام . ثم اعتقالات وتوجيه التهم المذكورة ثم تحقيقات ، ثم محاكمات. وسعيد الحظ مَن يُحكم عليه بالمؤبد . والشقى ليس له مصير إلا الإعدام شنقًا أو رميًا بالرصاص . ولا تنفعهم شفاعة الشافعين إن جرؤ أحد على الشفاعة لهم ، ولو باسم القانون!!

فليسأل خصوم الإسلام فى الخارج والداخل ، ليسألوا أنفسهم هل فعل الإسلام شيئًا من ذلك مع ألدّ خصومه ؟ وأخطر أعدائه ؟ حين كان الإسلام يطبق على أيدى قادة يعرفون حقيقة الإسلام ، ويحرصون كل الحرص على الالتزام بأوامره ونواهيه ؟ نازلين على حكم الله ورسوله ﷺ ، تاركين هوى أنفسهم ، ماضين على أمر الله فكان واقعهم هو الإسلام فى أجلى معانيه .

❊ ❊

---

(١) الأحزاب : ١٤ (٢) الأحزاب : ١٦

* سورة التوبة تتصدى وتواجه :

أطالت سورة التوبة الوقوف أمام مخادعات المنافقين وتلوُّن مواقفهم ، وقد عرفنا من قبل سلوكيات المنافقين فى غزوة الأحزاب ، وفيما سجلته عليهم سورة التوبة ما ينبئ عن أن مسلكهم فى غزوة تبوك كان شبيهًا بمسلكهم فى غزوة الأحزاب ، فقد نكصوا على أعقابهم وكرهوا الخروج فى سبيل الله فى الواقعتين معًا ، وَسبُّوا رسول الله وأظهروا الشماتة به وبالمسلمين ، وانتحلوا الأعذار فى التخلف عن الجهاد ، وبثوا روح التفرق بين الناس، وحاولوا جاهدين أن يثيروا الفتنة ، ولغطوا لغطًا كثيرًا فاحشًا ، وقد سجلت عليهم سورة التوبة هذه الجرائم من الآية (٤٢) إلى الآية (٧٠) ، ثم من الآية (٧٤) إلى الآية (٧٨) .. ومع إطالة القرآن الحديث عنهم وعن جرائمهم فقد وقف فى مواجهتهم مواقف الكشف عن خباياهم والرد السلمى الهادىء على مفترياتهم دون أن يتجاوز ذلك إلى تأليب المسلمين عليهم ، وإعمال السلاح فيهم .

ففى إظهار الشماتة بصاحب الدعوة والذّين معه واجه القرآن هذه الجريمة مواجهة الناصح الأمين : ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ (١) .

كانت مواجهة القرآن لهم : ﴿ قُلْ لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

وفى طعنهم على تصرف صاحب الدعوة فى تفريق الصدقات كان رد القرآن عليهم : ﴿ وِمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ (٣) . أى لكان ذلك خيرًا لهم .

وحين آذوا رسول الله ﷺ بقولهم : ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أى يُصدِّق كل ما يسمع لغفلته وعدم فطنته كان الرد عليهم : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ (٤) رادًا عليهم دعواهم أبلغ رد .

---

(١) التوبة : ٥٠
(٢) التوبة : ٥١
(٣) التوبة : ٥٨ ـ ٥٩
(٤) التوبة : ٦١

أى هو مصدر خير لكم لو أطعتموه . ولا تشتبه عليه الأمور كما تقولون ، بل هو بالغ الذكاء والفطنة يميز بين الخير والشر ، والحق والباطل .

وحين فرحوا بتخلفهم عن الجهاد فى تبوك مع رسول الله ﷺ وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا : ﴿ لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ (1) .جاء الرد عليهم : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (2) .

وهكذا فى هدوء تصدى القرآن لافتراءات المنافقين ، وهتك أستار نفوسهم وعرّاهم أمام الرأى العام ، ولكن لم يصادر حرياتهم ولم يسلب أمنهم ، ولم يضيق عليهم فى حل ولا ترحال .

بل إن القرآن ليذهب فى السماحة إلى أبعد من ذلك ، فتراه فى موضع آخر يفتح أمامهم باب التوبة ، ويُرغّبهم فيها لينسوا ماضيهم ويقبلوا على عهد جديد، يبدل الله فيه سيئاتهم حسنات . ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (3) .

وقد يقول قائل : كيف ذهبت هذا المذهب من عدم قتال المنافقين والله يقول فيهم : ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (4) .

والجواب : إن هذه الآية ليست حكمًا عامًا فى جميع المنافقين ، بل هى خاصة فى طائفة منهم كانوا قد ارتدوا ولحقوا بالمشركين بعد إظهارهم الإيمان فهذا حكم خاص بهم (5) .

أما كلامنا ففى المنافقين الذين لم يُحدثوا ردّة ظاهرية ، فلا وجه لقول القائل الذى أشرنا إليه .

---

(1) ، (2) التوبة : ٨١ - ٨٢

(3) النساء : ١٤٥ - ١٤٦

(4) النساء : ٨٩

(5) انظر الكشاف : ١/٥٥٠

وسيأتى من وقائع السنَّة ما يؤيد ما قلناه ، ونقول مرة أخرى إن الإسلام دين السماحة والعفو فى الحياة الدنيا ، أما الآخرة فيواخذ كل امرىء بما كسب. وما ربك بظلام للعبيد .

* *

* مبدأ إسلامى عام فى التسامح :

الفتن الدينية من أعقد المشكلات حلاً ، وأسوئها آثارًا ، وأسرعها اشتعالاً ، وأبطئها خمودًا ، وتقديرًا من الإسلام لهذه الاعتبارات ، فإن القرآن العظيم نهى عن التجادل فى شئون العقيدة الدينية ، ولم يرخص لأحد ، كائنًا مَن كان ، أن ينصب من نفسه قاضيًا للفصل بين الطوائف الدينية ، لأن أحدًا من الخلق لا يصلح للقيام بهذه المهمة . لذلك خطا القرآن خطوات واسعة فى هذا المجال ، وأرجأ الفصل فى شئون العقيدة لله الواحد الديَّان يوم يقوم الناس لرب العالمين .

ترى ذلك واضحًا جليًا فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [(١)] .

وانظر كيف أدرج القرآن مع المؤمنين واليهودَ والنصارى ـ وهم جميعًا أهل كتاب ـ الصابئين والمجوس والمشركين عمومًا ، وهم جميعًا ينتمون إلى أديان ليست كتابيــة.

يريد القرآن من هذا أن ينصرف كل أهل دين إلى حال سبيله ويعمل على شاكلته ، ويُعْرض عن الاحتكاك بالآخرين فلا يثير معهم أمورًا دينية تكون سببًا فى اشعال الفتنة والاضطراب فيختل نظام الحياة ، وتكون فتنة فى الأرض وفساد كبير . إن الذى نقوله ـ هنا ـ ليس تخمينًا ولا اجتهادًا يحتمل الصواب والخطأ . بل هو حكم قطعى الثبوت والدلالة ، تواترت النصوص المحكمة على تقريره وتوكيده . فخذ إليك مثلاً آخر قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوكُمْ فِي

---

(١) الحج : ١٧

مَا آتَاكُمْ، فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا، وَلاَتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٢) .

إنّ لهذا المبدأ العام فى التسامح الدينى فى الإسلام آثارًا عميقة الجذور فى إقرار السلام العالمى ، فهو يكره الفتن أيًا كان سببها دينيًا كان أو غير دينى ، لأن نشوب الفتن لا يحل المشكلات ، بل يزيدها استعارًا ، ويفتح الباب واسعًا لمكايد الشيطان ، وهو يعتبر قتل نفس واحدة - عدوانًا وظلمًا - بمثابة قتل الناس جميعًا ، والفتن مجازر لقتل الألوف من الناس لذلك قرر الإسلام هذا المبدأ العام العظيم ، فأوصد باب الجدل الدينى حتى تقوم الساعة ، والله وحده يتولى الفصل بين عباده ؛ لأنه حَكَمٌ عدل ، وهو على كل شىء شهيد .

أهذا الدين - الإسلام - بما فيه من هذه المبادىء يكون موضعًا للاتهام بالإرهاب والعنف وسفك الدماء ومصادرة الحريات والقهر على فرض العقيدة ؟ .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) المائدة : ٤٨ (٢) الأنعام : ١٦٤ (٣) الكهف : ٥



﴿لاَ إِكْرَاهَ فِى الّدينِ، قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ﴾

(البقرة : ٢٥٦)

* * *

الفصل الثاني

سماحة الدعوة فى القرآن الكريم

فى حرية الاعتقاد

المباحث الأربعة التى تقدمت فى مواجهة القرآن لقضيتى التوحيد والبعث ، وموقف القرآن الكريم من ظاهرتى مزاعم أهل الكتاب ، ومخادعات النفاق والمنافقين ، هذه المباحث الأربعة كانت بمثابة مقدمات تترتب عليها نتيجة بالغة الخطورة والصدق .

تلك النتيجة هى : أن الإسلام من كل ما تقدم يقرر فى وضوح مبدأ حرية الاعتقاد ، وأنه بعيد بُعْد السماء عن الأرض من فرض عقيدته على الناس بقوة السلاح ، وسفك الدماء، وأنه لا يصادر حرية أحد ، ولا يحجر عليه فى قول أو فعل . كل ما هنالك أنه يتصدى للباطل فى أى لون كان ، ويكشف عوره ، ويبين زيفه ويدعو إلى الحق فى أى مجال كان ، فيذيل ما حوله من شبهات ويجليه للرأى العام أبلق ناصعًا ، ثم يترك للناس حرية الإقبال عليه أو الإعراض عنه مع تبشير المؤمنين بحسن المصير ، وإنذار الرافضين بسوء المصير . هذا هو ما نتج عن المباحث الأربعة وكل نماذجها كانت آيات قرآنية من كتاب الله العزيز ، والقرآن هو المصدر الأول للتشريع الإسلامى بلا نزاع .

أما فى هذا الفصل فنريد أن نورد شواهد وبراهين أخرى من آيات الكتاب العزيز على تقرير مبدأ حرية الاعتقاد فى القرآن الكريم مع ضوابط لابد منها تتعلق بهذا المبدأ الحيوى العظيم حتى لا يلتبس الحق بالباطل ، ويصير مَن كفر كمن آمن مبدءًا ومصيراً .

ذلك أننا حين نقول إن كتاب الإسلام الأول (القرآن) أقر مبدأ حرية الاعتقاد ، فإن هذا القول صحيح .. صحيح . ولكن هذه الحرية مقصورة على الحياة الدنيا ، أما فى الآخرة فإن الحال مختلفة فلن يجعل الله مَن كفر كمَن آمن، فلكل منهما عند الله جزاء وفاق ، ومصير عادل .

ولك أن تقول - وأنت مصيب - إن تقرير مبدأ حرية الاعتقاد فى الدنيا . إنما هو بالنظر إلى سلطة الناس بعضهم على بعض فليس من حق أحد حاكمًا كان أو محكومًا أن يجبر

أحدًا على اعتناق أية عقيدة ، فلكل إنسـان أن يعتقد ما يحلو له . وليس لأحد عليـه سلطة الإجبار ، لا بسلاح ولا بغير سلاح من وسائل القهر والقمع والاضطهاد .

اعتقال - حبس - فصل من عمل - تضييق فى الحريات - حرمان من حقوق ترتبت له باعتبار إنسانيته وحياته ، وحرمة ماله وعرضه . كل هذه الوسائل لا يقر الإسلام استعمالها ضد أحد كائنًا من كان لتفرض عليه عقيدة وإن كانت عقيدة الإسلام ، لأن ذلك ينافى مبدأ التكليف الحر النابع من حسن الاقتناع بعد سوق البراهين عليه .

ولأن العقيدة محلها القلوب ، ووسيلتها الإقناع ، والقلوب لا سلطان لأحدٍ عليها إلا لله علاَّم الغيوب . هذه الاعتبارات يقدرها الإسلام حق قدرها ، ولذلك كان من أصوله الخالدة عدم الإكراه فى الدين .

ومن الضوابط المتعلقة بحرية الاعتقاد فى الإسلام بعد التفرقة التى أشرنا إليها من قبل بين ذوى الاعتقاد الصحيح وذوى الاعتقاد الفاسد فى الآخرة ، بأن لكل منهم جزاءً ومصيرًا عند الله فإنَّ اللّه تعالى يُفَرِّق بينهما فى الحياة الدنيا ، فيخص ذوى الاعتقاد الصحيح بلطائفه وإحساناته وتوفيقه ، ويحييهم حياة طيبة إذا قرنوا صحة اعتقادهم بالعمل الصالح ، ثم يدخلهم روضات الجنات هم فيها يحبرون ويذر ذوى الاعتقاد الفاسد فى طغيانهم يعمهون، تقتلهم الأوهام ، ويستحوذ عليهم الشيطان ، ثم يكونون حصب جهنم هم فيها خالدون . ومعلوم أنَّ هذه التفرقة ليست لأحد إلا لله .

على هذه الأسس ينبغى أن يُفْهَمَ مبدأُ حرية الاعتقاد فى الإسلام وعليها ندير الحديث فى السطور الآتية :

* من شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر :

إنَّ من أوضح النصوص القرآنية دلالة على حرية الاعتقاد فى الإسلام – فى إطار الضوابط التى ذكرناها - قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [1] .

(١) الكهف : ٢٩

من إخلاص النصح والتوجيه القرآنى أنَّ فى هذه الآية الناطقة بكل وضوح بتقرير مبدأ حرية الاعتقاد بين الإيمان والكفر لوَّحت مرة وصرّحت أخرى أن الإيمان والكفر ليسا سواء.

أما التلويح فحيث قُدمت مشيئة الإيمان لشرفه على مشيئة الكفر لخسته .

وأما التصريح فقد عقبت الحديث عن اختيار الكفر بالتنفير منه ، حيث ذكرت مصير الكافرين فى الحياة الآخرة .

حيث أعدَّ الله لهم نارًا . أحاط بهم سورها إحاطة الظرف بالمظروف فلا مخرج منها ولا مفر : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [1] .

وإن طلبوا الإغاثة من حَرِّها بما يبرد أكبادهم ، ويُذهب لظى أحشائهم جاءهم الغوث ولكن بغير ما أرادوا : ماء حار قبيح اللَّون إذا وضعوه على أفواههم ليشربوه شوى وجوههم وجلودهم . فإذا وصل إلى أجوافهم قطع أمعاءهم . وضاعف شقاءهم . فبئس هو شرابًا، وساء هو رفيقًا : ﴿ وَسُقُواْ مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾[2] .

أما الماء العذب الزلال فهم محرومون منه ، وهو محرَّم عليهم : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ، قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [3] .

ظاهر من سياق آية الكهف أن القرآن حريص كل الحرص ــ وهو يقرر مبدأ حرية الاعتقاد ــ أن يؤكد أن هذه الحرية ليست مستوية الطرفين . وفى هذا إخلاص فى النصح والتوجيه وأمانة فى البلاغ والإبلاغ ، لئلا تكون هذه الحرية المقصورة على الحياة الدنيا سببًا فى هلاك فريق من العباد يرون أن الإيمان والكفر سيان فى ميزان العدل الإلَهى محيًا ومماتًا . ولكن مع بيان هذه التفرقة بينهما يتحمل كل إنسان نتائج اختياره فى الدنيا والآخرة

---

(١) الحج : ٢٢ (٢) محمد : ١٥ (٣) الأعراف : ٥٠

فمن سعيد بما كسب ، وشقى بما اكتسب ، وما الله بظلاّم للعبيد .

﴿ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا، وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ (١) .

وهذا هو منتهى العدل والانصاف .

* * *

---

(١) فاطر : ٣٩

فإنما عليك البلاغ

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ، وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ، وَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ، فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ، وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [(١)] .

هذه لقطة من مسرح الدعوة إلى الإسلام ، تجد فى صدرها القرار الحاسم الذى لارجوع فيه : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ ﴾ .. هكذا يجب أن يفهم جميع الناس فى كل عصر ومصر ، ثم تشرح الآية سبب رفض أهل الكتاب ـ وفى مقدمتهم اليهود ـ للإسلام ، وهو بغيهم بعد مجيء العلم إليهم ، وتنتهى الآية ببيان مصير هؤلاء الرافضين للإسلام ، وتأتى الآية الثانية فتحدد للرسول الخاتم ﷺ كيفية الرد على أهل الكتاب إن جاءوه مجادلين فى شئون الدين وهى إسلام الوجه لله : أى الإنقياد إليه وحده لا شريك له. وأن يقول لأهل الكتاب ولمشركى العرب الأميين ، أقبلتم الإسلام دينًا كما أمر ربكم ؟ وأن بعد هذا القول احتمالين : إما أن يقولوا : أسلمنا ، وفى هذا يكونون قد اهتدوا .

وإما أن يتولّوا ويرفضوا الإسلام . وفى هذه الحالة تكون مهمة الداعى قد انتهت ، وهى: البلاغ .ولا سلطة للداعى عليهم بعد البلاغ : أى ما عليك إلا البلاغ . وهذه مهمة كل الدعاة : رسلاً ، وأتباع رسل .

ثم تأتى الآيتان (٢١ - ٢٢) زيادة تنفير وتحذير من الكفر والمعاصى الناشئة عنه : قتل الأنبياء ، وقتل الذين يأمرون بالعدل من الناس ، بأن لهم بشرى عند الله هى العذاب الأليم. ثم بيان حبوط أعمالهم فى الدنيا والآخرة . ولن يجدوا لهم نصراء يدفعون عنهم العذاب.

---

(١) آل عمران : ١٩ـ٢٢

الدعوة إلى الإسلام - هنا - تواجه طائفتين من البَشر : أهل الكتاب ومشركى العرب. وكل العقوبات التى رصدتها للمعرضين عن الإسلام عقوبات أخروية . ولم يأت ضمن هذه العقوبات أمر بقتال المعرضين أو أى عقوبة دنيوية لهم يقوم بايقاعها أحد من الناس .

وهذا معناه :

* إطلاق حرية الاعتقاد ، وأن العقائد لا تفرض على الناس بقوة السلاح أو وسائل ضغط أخرى .

* أن هذه الحرية لها ضابطان :

الأول : اختصاصها بأوضاع الناس فى الحياة الدنيا .

الثانى : اختصاصها بعلاقات الناس بعضهم ببعض .

أما الله - سبحانه - فله من التدابير والتصرفات فى شئون خلقه ما يقع فى الدنيا ، ومايقع فى الأخرة : ﴿ لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (١)

* *

* مهمة الدعاة :

أما مهمة الدعاة جميعا — رسلاً وغير رسل - فهى البلاغ وحده وليس لهم سلطة الجبر والقهر على قبول الإسلام . وإذا كان الله قد قصر مهمة الرسل على البلاغ المبين . فغيرهم من الدعاة أولى بهذا القصر . وحين يخرج الدعاة عن هذا ، ويرون أن من سلطتهم استعمال القوة لفرض الإسلام ، يكونون فى حاجة إلى دعاة آخرين أكثر منهم بصراً وبصيرة ليعلموهم آداب الدعوة إلى الحق كيف تكون .

* *

* نصوص أخرى تؤكد هذا المبدأ :

نعنى بالمبدأ - هنا - حرية الاعتقاد ، وقصر مهمة الدعاة على التبليغ والإبلاغ ، وأنَّ ليس

(١) الأنبياء : ٢٣

لهم سلطة الإجبار . ومن النصوص القرآنية التى تؤكد هذا المبدأ قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ، وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١) .

فهذا بيان صريح بأن فى حالة التولى والإعراض فإن المتولين المعرضين يتحملون وزر توليهم أمام الله . والطاعة خير لهم . أما الرسول فليس عليه إحداث الهداية فى قلوبهم ، ولا فرض أصول الإيمان عليهم فرضًا . بل عليه ـ فحسب ـ البلاغ المبين . وتبرأ ذمته منهم أمام الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (٢) .

من المعلوم الذى لا يكاد ينازع فيه عند علماء المعانى أن : « إنما » من الأساليب البلاغية يكون ما يقع بعدها مباشرة مقصوراً على ما بعده ، لا يتعداه إلى غيره من الصفات أو من الموصوفين . وتطبيق هذه القاعدة على الآية ـ هنا ـ جلى واضح . فالذى وقع بعد «إنما» مباشرة هو الجار والمجرور « عليك » ، والذى وقع بعده هو « البلاغ » والضمير ، وهو « الكاف » فى « عليك » مراد به الرسول ﷺ . أى أن الواجب عليه فى مجال الدعوة هو البلاغ وحده ، ولا شىء غير البلاغ . وهذا يؤكد ما قدّمناه مرات من أن الإجبار ليس من حق الدعاة ، لأن الدعاة تابعون للرسول ﷺ فى هذا المبدأ . أى أن حرية الاعتقاد فى الحياة الدنيا مكفولة شرعا ووحيًا . أما حساب الرافضين للحق فللّه وحده لا يشركه فى ذلك أحد . والالتزام بهذا المنهج واجب النفاذ .

* * *

(١) النور : ٥٤ (٢) الرعد : ٤٠

ومن قواطع الأدلة قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ (١) .

بدأ هذا التوجيه الإلهى بلفت أنظار المدعويين إلى بعض دلائل القدرة الالهية . وكيف أحكم الله خلق الإبل ، ورفع السماء بلا عُمد ، ونصب الجبال فأمكن نصبها ، ومَهَّد سطح الأرض لتيسير الحياة عليه . وبعد هذه النماذج من الدعوة بالوسائل السلمية التى تستقطب العقول ، وتأسر القلوب توجه إلى رسوله فأمره بالتذكير ، بل حصر مهمته فيه : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ وعلى غرار ما تقدم فى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ ﴾ (٢) فإن مهمة الرسول هنا - كما هى هناك - محصورة فى التذكير لا تتعداها إلى أى أمر آخر . ومع أن هذا المعنى مفهوم من دلالة التركيب ، فإن القرآن أكَّده مرة أخرى : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ أى لاسلطة لك عليهم بعد التذكير والإنذار والتبشير . هذا المعنى جاء بطريق الإثبات فى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ وبطريق النفى فى : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ وتأدية هذا المعنى بطريق الإثبات مرة ، والنفى أخرى أقوى وأبلغ من تأديته عن طريق الإثبات وحده ، أو النفى وحده .

وهذا المنهج البيانى ـ الجمع بين الإثبات والنفى فى تأدية المعنى الواحد ـ يستعمله القرآن فى المعانى ذات الشأن العظيم ، ومنها المعنى الذى نتحدث عنه الآن .

أما الاستنثاء فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ فليس معناه أن من تولى وكفر يكون للرسول عليه سيطرة ، كلا . لأن هذا الاستثناء منقطع عما قبله وليس متصلا به . وتمام معناه فى قوله تعالى : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ .

ثم تأتى الآيتان (٢٥ ـ ٢٦) فتقطعان كل احتمال ، حيث قرر الله فى الأولى منهما أن

(١) الغاشية : ١٧ - ٢٦ (٢) آل عمران : ٢٠ ، الرعد : ٤٠ ، النحل : ٨٢

رجوع الناس إليه وحده لا إلى أحد سواه . وقرر فى الثانية منهما أن حساب الناس عليه هو، وليس على أحدٍ سواه .

ولما كان هذا المبدأ من آصل الأصول فى الإسلام عَبَّر عنه القرآن فى أساليب فخمة قوية الإحكام :

ففيها من أدوات توكيد المعنى : حرف التوكيد « إن » ثم ما يعرف عند علماء المعانى بـ « اسمية الجملة » لأن الجملة الإسمية التى ركناها : المبتدأ والخبر . أثبت دلالة من الجملة الفعلية التى ركناها : الفعل والفاعل . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن جميع التراكيب التى تحدثت عن هذا المعنى ، وهو حصر مهمة الدعاة في التبليغ جاءت فى القرآن الحكيم جملاً قَصْرية ، ﴿ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاَغُ ﴾ . ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ (١). ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ (٢) . ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ (٣) وغير ذلك مستفيض فى آيات الذكر الحكيم .

* *

* حرص صاحب الدعوة ، وتعقيب الوحى عليه :

من المعلوم أن صاحب الدعوة ـ ﷺ ـ كان حريصًا كل الحرص على إسلام قومه . وقد بذل من الجهد رغبة فى أن يقبلوا الإسلام ما تجاوز حدود الرسالة المنوطة به ﷺ ، مُحَمِّلاً نفسه من الكد والعناء ما لا طاقة لأحد به غيره ، بَيْدَ أن الوحى الأمين كان يتعقب مواقف حرصه المرة تلو المرة ويدعوه أن يترفق بنفسه ولا يُحَمِّلها من المشاق ما لم يأمره الله به .

ومن تعقيبات الوحى الرحيم على حرصه ﷺ على إيمانهم وتحمله المشاق الزائدة عن المطلوب فى هدايتهم ، وحزنه الشديد على إعراضهم ، من تلك التعقيبات قوله تعالى : ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ (٤) .

---

(١) التغابن : ١٢
(٢) فاطر : ٢٣
(٣) النازعات : ٤٥
(٤) طه : ١ ـ ٣

قال صاحب الكشاف في معناه : « أى ما عليك إلا أن تبلّغ وتُذكّر ، ولم يُكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة ، بعد أن لم تُفرّط فى أداء الرسالة والموعظة الحسنة » [1] .

إنه لخطاب رقيق ودود لصاحب الدعوة ﷺ ونداء إلهى كله عطف وحنان . وكأن الله يقول له : لا تُحمّل نفسك فى الحرص على إسلامهم مشاقًا لم نكتبها عليك ، ولا هى من طبيعة الرسالة التى كلفناك بها . فدع الشقاء المضنى لك ، وقف عند حدود التذكير والموعظة الهادئة الواضحة . بلّغهم ما أوحينا به إليك ، وارحم نفسك من هذاالعناء ، فلا عليك أن يؤمنوا وإنما عليك كمال البلاغ وإقامة الحُجَّة لله على من لم يؤمن . وحرصه ﷺ كان نابعًا من فضيلة أصيلة فيه ، هى حبه الخير للناس ، والإشفاق عليهم من الردى الأبدى والحرص الشديد الذى أبداه على إسلام قومه ، وإن لم يكن من مراسم الرسالة ، فهو مَحمدة كريمة له ــ عليه السلام ــ وقد سجّل الله له هذه الفضيلة فى قوله الكريم : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [2] .

* * *

(١) الكشاف : ٥٢٩/٢

(٢) التوبة : ١٢٨

فلا تذهب نفسك عليهم حسرات

ومن تعقيبات الوحي الرحيم على حرص صاحب الدعوة ﷺ قوله تعالى : ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (١) .

أى أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرات . يُنكر عليه ذهاب نفسه حسرات عليهم ولكى يعينه على ترك الحسرة عليهم بيَّن له أن ضلال من ضلَّ ، وهداية من اهتدى كل ذلك يجرى وفق إرادة الله وحكمته وعلمه بحقائق عباده . فعلام التحسر والتأسف إذن ؟

أى أن الناس مقهورون لله ، وليس قاهرين له ـ سبحانه ـ وأن علم الله بمايصنعون يعقبه جزاء المحسن بالإحسان والمسئ بالإساءة . فلا تحزن عليهم فلن يفروا من عقاب الله العادل.

* * *

---

(١) فاطر : ٨

نفق في الأرض أو سُلَّم في السماء

وفى مواضع أخرى من تعقيبات الوحى الكريم على حرص صاحب الدعوة ﷺ على إسلام قومه ، تفيد صياغة الكلام على أنه عليه السلام قد بلغ مبلغًا بعيدًا فى ذلك الحرص ، وسيطرت عليه رغبة عارمة فى هداية القوم . لذلك فإن تعقيبات الوحى فى هذه المرة جاءت تحمل كمية هائلة من الشدة ، وإنكارًا قويًا لما يصدر منه . ويصوّر ذلك كله قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِى الْمُرْسَلِينَ * وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى، فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

بدأ هذا الموقف من التعقيب بتسلية صاحب الدعوة ﷺ بما يأتى :

فأولاً : أن الله يعلم ما عليه حال قومه من الإعراض والصدود عن الحق .

وثانيًا : أن إعراضهم وصدودهم لم يكن سببه قصورًا منه ﷺ ، ولا تكذيبًا منهم له لنقص يرجع إلى الدلائل والبراهين التى أتاهم بها ، بل هم يصدقونه فى كل مايقول ، فليس هو فى حاجة إلى دلائل جديدة لم يعرضها من قبل ، أو آيات معجزة تحملهم على الإذعان والطاعة .

وثالثًا : أن السبب الحقيقى فى إعراضهم وصدودهم هو العناد والجحود فهو مرض فى قلوبهم ، وليس عيبًا أو نقصًا فى أساليب الدعوة .

وبعد هذا البيان الحكيم ، والتحليل الصادق للموقف يتوجه الوحى العظيم لصاحب الدعوة بهذا العتاب الهادر : وإن كَبُرَ وعظم عليك إعراضهم عنك وعن الحق الذى بعثناك به إليهم فافعل ما تريد.

---

(١) الأنعام : ٣٣ ـ ٣٥

فأمامك وتحت قدميك الأرض فنقّب فيها ، وغُصْ فى أعماقها فاستخرج لهم منها معجزات إن استطعتَ ؟ ! وإن ضاقت عليك الأرض أو لم تجد فيها معجزات فإن فوقك السماء . فهل تستطيع أن تجد لك سُلَّمًا لتصعد فيها فتُنْزِل لهم منها معجزة أو معجزات كى يؤمنوا وتستريح من عناء الحرص عليهم والإشفاق بهم ؟ !

ولا ريب أن الرسول حينما ووجه من ربه بهذا الإعجاز القاهر أدرك أنه دون هذا بكثير .

ثم كان ختام هذا التعقيب : إن مقاليد الأمور - كلها - بيد الله ، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة على أهدى قلب رجل واحد ، فوطّن نفسك يا محمد على هذه السُّنَّة الإلهية الحكيمة ، وإيَّاك أن تكون ممن يجهلون سنن الله فى خلقه .

إنه لتوجيه كريم ، وتربية قويمة ، وتبصير مبين ، يعود بصاحب الدعوة إلى أصل الرسالة: إنه التبليغ وحده مع ذكر الدلائل والبراهين التى أرشده إليها ربه، ولا عليه بعد ذلك أن يؤمن الناس جميعًا أو يعرضوا جميعًا .

وقد تكرر هذه التوجيه فى إيجاز فى مواضع ، وفى إسهاب فى مواضع أخرى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١) .

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ...﴾ (٢) .

﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ...﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ، وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) يونس : ٩٩ (٢) البقرة : ٢٧٢
(٣) القصص : ٥٦ (٤) النحل : ١٢٥ - ١٢٨

وهكذا تتوالى التعقيبات الإلهية على الحرص المضنى الذى كان ينوء بأثقاله صاحب الدعوة . وما من تعقيب إلا ويدعوه إلى التريث والتثبت والتأنى ، ويأمره بالوقوف عند حد الإبلاغ الهادىء المبين ، ونهاه عن التسرع والحزن والانفعال ، لأن هذه الأمور وسيلة ، للميل عن سنن الرسالة وآدابها . ولو كان الله مؤذنًا لأحدٍ باستعمال البطش والقوة المجبرة على قبول الحق ، والانقياد له قسرًا ، لكان خاتم الرسل أولى الناس بهذا الإذن ، لأنه معصوم من الخطأ فى التبليغ .

* * *

رحمة عامة لكل الناس

الحرص الذى أبداه صاحب الدعوة لم يكن مقصوراً على عشيرته وقومه ، بل كان رحمة عامة يشعر بها أمام جميع الناس ، حتى اليهود والمنافقين . صحيح أن هذا الحرص قد بدأ مبكراً من قبل الهجرة حيث لم يكن بمكة يهود ولا منافقون . لكن القرآن دلّنا على أن حرصه تجاوز قومه وعشيرته الأدنين إلى آفاق عامة شملت المنافقين واليهود معًا ، فكان يحزن على إعراضهم كما حزن على إعراض قومه من قبل . وذلك فى قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَيَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِه، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا، وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ، وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [(1)] .

فالذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم هم المنافقون ، والذين هادوا هم اليهود . نهاه الله أن يحزن على كفرهم وكرر له القول بأن الأمور بيد الله ، ولو كان الله قد علم فيهم خيراً لهَداهم ، ومَن يُرد الله فتنته ــ لأمر هو به عليم ــ فليس فى مقدرة أحد أن يملك لهم منها مخرجًا . والذين حزن عليهم ﷺ قد سبق فى علم الله أنهم لن يختاروا إلا الكفر والضلال ، وأن الله كتب عليهم الخزى فى الدنيا ، والعذاب العظيم فى الآخرة .

وفى هذا البيان تسرية عن نفس النبى ، وتفريج لهمه ، وتثبيت لفؤاده وقرة لعينه ﷺ .

* *

*** خلاصات موجزة :**

نستخلص مما تقدم بكل وضوح وقوة ما يأتى :

أولاً : أن حرية الاعتقاد فى الإسلام مكفولة وحيًا وشريعة .

---

(١) المائدة : ٤١

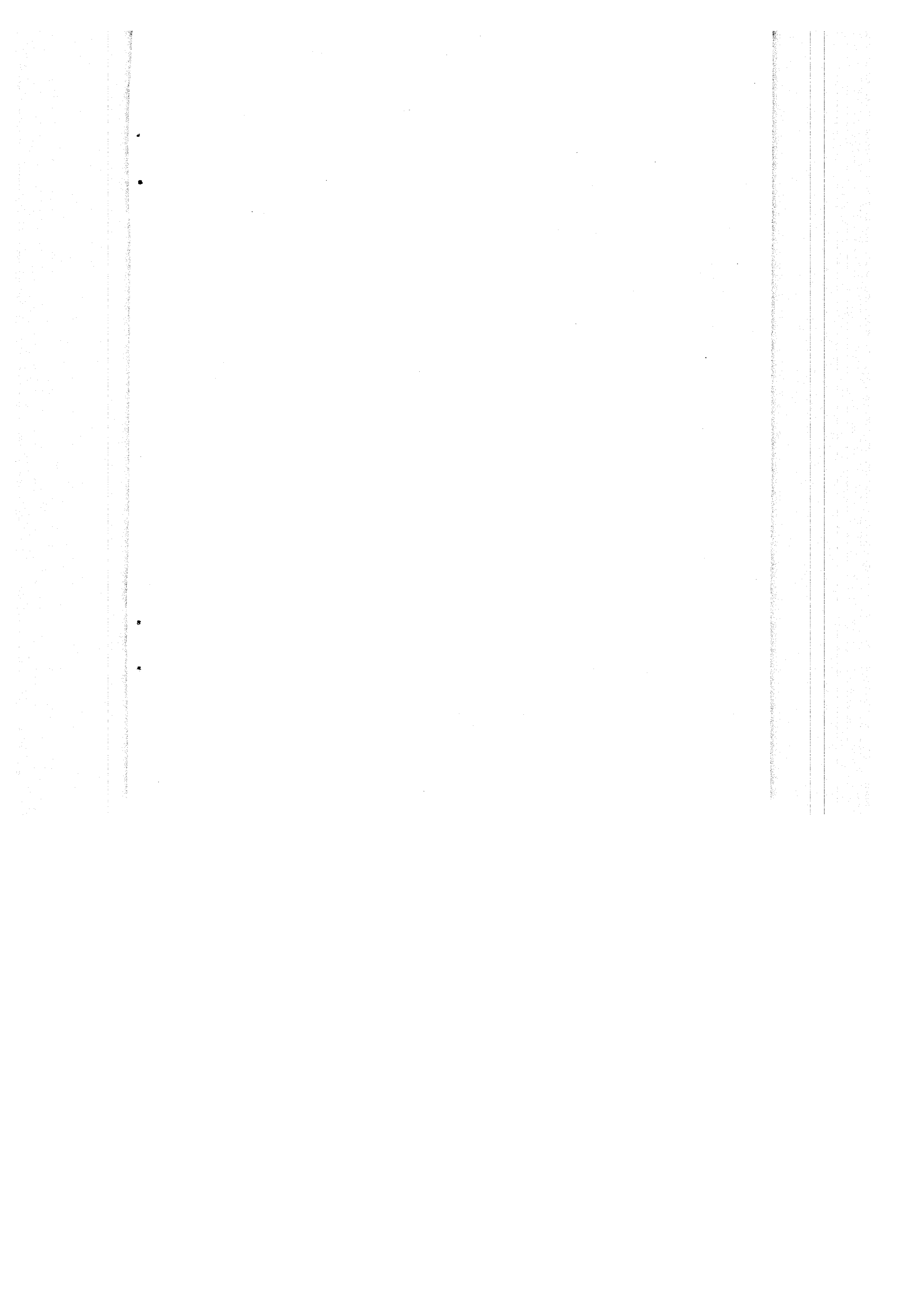
ثانيًا : أن هذه الحرية مقصورة على الحياة الدنيا باعتبار علاقات الناس بعضهم ببعض، فليس لأحد أن يفرض أية عقيدة على الناس بأى وسيلة من وسائل القهر المادى . أو الحرمان من الحقوق التى اكتسبها الإنسان بموجب أنه حى يُرزق .

ثالثًا : أن هذه الحرية ليست مستوية الطرفين فيكون من كفر كمن آمن ، كلا . بل هم عند الله فريقان مختلفان . وأن لكل منهم عنده جزاءً ومصيرًا .

رابعًا : أن مهمة الدعاة - ومنهم الرسل - لا تتجاوز بأية حال دائرة الإبلاغ بالحكمة والموعظة الحسنة .

خامسًا : أن الإسلام بلغ نهاية السماحة والكرم فى كل فرع من فروع الدعوة . وأن الذين يتهمونه بالإرهاب والبطش يأتون منكرًا من القول وزورًا . وهم إما جاهل غبى ، أو متجاهل عنيد .

* * *



﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلعَالَمِينَ﴾

(الأنبياء : ١٠٧)

* * *

الفصل الثالث

سماحة الدعوة إلى الإسلام فى النشاط النبوى

المبحث الأول - سَمَاحَةُ الدَّعْوَةَ فِى السُّنَّةِ القَوْلِيَّة :

نقصد بهذا الجانب من النشاط النبوى فى السُّنَّة القولية ، مكاتبة صاحب الدعوة ﷺ إلى ملوك ورؤساء تشكيلات العالَم الذى كان معاصراً لنشأة الدعوة إلى الإسلام ، فـ «محمد ﷺ» كان مرسلاً للناس جميعًا بشيراً ونذيراً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً .

وبدؤه بالتوجه بالدعوة إلى قومه أولاً لا ينافى عموم الرسالة قطعًا لأن الرسالة كانت ذات أولويات فى بدء أمرها .

سرية أولاً ، ثم جهرية ثانيًا فى حدود أم القُرَى ، ثم توجهت إلى القبائل المجاورة لأم القُرَى ، وهكذا حتى شملت كل الشعوب والأمم خارج نطاق شبه الجزيرة العربية : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [1] .

* * *

(١) الأعراف : ١٥٨

ونزولا على أمر الله بدأ صاحب الدعوة ﷺ يُبلّغ رسالة ربه لمن حوله من الشعوب والبلدان ، وكان هذا بعد صلح الحديبية عام ستة من الهجرة ، حيث أتاح هذا الصلح للدعاة أن ينطلقوا حيث شاءوا وهم آمنون من بطش قريش وحلفائها . وفيما يأتى نصوص الكتب التى بعث بها ﷺ إلى ملوك ورؤساء الدول فى ذلك العهد .

* كتابه إلى النجاشى ملك الحبشة :

كان النجاشى هذا نصرانيًا وملكًا على نصارى الحبشة . وقد أرسل إليه ﷺ كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام . وحمل الكتاب إليه عمرو بن أمية الضمرى فى آخر سنة ست ـ أو فى المحرم سنة سبع على خلاف بين كتب السيرة ـ ونص الكتاب هو :

« هذا كتاب من محمد النبى إلى النجاشى الأصحم عظيم الحبشة : سلام على من اتَّبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الإسلام ؛ فإنى أنا رسوله، فاسلم تسلم :﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللّهِ، فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ . فإن أبيتَ فإن عليك إثم النصارى من قومك » [1] .

هذا نص الكتاب ، وهو يحمل دعوة سلمية إلى الإسلام ، تخلو من التهديد بالقتل أو القتال . وإنما تنذر من تحمل الإثم أمام الله إذا أعرض المدعو ولم يذعن للحق .

ولما بلغ الكتاب النجاشى أسلم فى الحال ، وكتب إلى النبى ﷺ يخبره بإسلامه . ومما يروى أن النجاشى وضع كتاب النبى على عينيه ، ونزل عن سرير مُلْكه ، وجلس على الأرض .

وتأمل ما فى الكتاب من لمحات طيبة ، فالنجاشى نصرانى من أهل الكتاب ، لذلك آثر

---

(١) رواه البيهقي عن ابن إسحق . كما روى قريبًا منه الطبرى في تاريخه . والآية من سورة آل عمران : ٦٤

ﷺ أن يذكر له الآية التى أنزلها الله لمخاطبة أهل الكتاب : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ .... ﴾ [1] وهو النداء الخالد الذى أشرنا إليه من قبل .

* *

* كتابه إلى المقوقس عظيم القبط .. ملك مصر :

بعث صاحب الدعوة ﷺ بكتاب إلى جريج بن متى المعروف بـ «المقوقس» وكان عظيم القبط بمصر ، ومَلِكًا عليها ، وقد حمل الكتاب إليه حاطب بن أبى بلتعة . وكان نص الكتاب كما رواه أصحاب السير [2] :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد بن عبد الله ورسوله ، إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على مَن أتبع الهدى ، أما بعد .. فإنى أدعوك بدعاية الإسلام : أسلم تسلم ، واسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليتَ فإن عليك إثم أهل القبط : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِن دُونِ اللّهِ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

ولما دخل حاطب على المقوقس قال له : « إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . فانتقم به ، ثم انتقم منه . فاعتبر بغيرك ولايعتبر غيرك بك » .

قال المقوقس : إنّ لنا دينًا لن ندعه إلا لما هو خير منه ؟

فقال حاطب : « ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فَقْدَ ما سواه . إنّ هذا النبى دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، فكل نبى أدرك قومًا فهم أمته ، فالحق

---

(١) آل عمران : ٦٤

(٢) زاد المعاد لابن القيم : ٦١/٣ ، وابن هشام : ٣٥٩/٢

عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به »[1] .

فقال المقوقس : إنى نظرتُ فى أمر هذا النبى ... ولم أجده بالساحر الضال. ولابالكاهن الكاذب .. وسأنظر ، ثم وضع الكتاب فى إناء من عاج وختم عليه وأمر بحفظه . ثم دعا كاتبًا له يحذق اللغة العربية نطقًا وقراءة وكتابة . وأمره أن يكتب للنبى الكتاب الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك، أما بعد : فقد قرأتُ كتابك ، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمتُ أن نبيًا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثتُ إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك » .

* *

* تعقيب :

خلا كتاب النبى ﷺ من أى تهديد بالقوة إذا لم يسلم المقوقس وقومه ، كما خلا من ذلك كتابه إلى ملك الحبشة من قبل . واقتصر الكتابان على مجرد الدعوة السلمية إلى الإسلام .

كما خلا الحوار الحكيم الذى دار بين مبعوث رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة ، وبين المقوقس من تهديد بفرض الإسلام على القبط بقوة السلاح ، بل لم يشر إلى ذلك ولو إشارة خفية ، وإنما اعتمد حاطب على الإقناع بالوسائل السلمية كما ترى ، ولم يكن المقوقس أكثر ذكاء ودبلوماسية فى حواره وفى كتابه الذى بعث به إلى النبى من حاطب بن أبى بلتعة ، فقد كان ذكيًا ماهرًا فى حواره مع المقوقس .

وكما ترى فإن صاحب الدعوة اكتفى برد المقوقس عليه ولم يتخذ تدابير أخرى حتى لقى الرفيق الأعلى . وربما كان رد عظيم القبط يحمل فى بعض فقراته وعدًا بالنظر والتثبت من الدعوة الكريمة التى وجهها صاحب الدعوة إليه .

---

(١) يقصد ما جاء به المسيح قبل التحريف ، وهو التوحيد الخالص لله ، وتنزيهه عن الصاحبة والولد .

وكانت مارية القطبية ـ إحدى الجاريتين ـ أمًّا لولده إبراهيم ، وكما كان المقوقس كريمًا فى إهدائه كان عليه السلام كريمًا فى قبول ما أُهدى إليه ، وقد انعقدت المصاهرة بين المسلمين وبين أهل مصر فى ذلك الحين بسبب مارية القبطية ، وكانت لهذه المصاهرة منزلة عند النبى ﷺ ، فقد أوصى المسلمين إذا فتحوا مصر من بعده أن يستوصوا بأهلها خيرًا ؛ لان لهم نسبًا وصهرًا ، وهذا ما حدث بالفعل عند فتح مصر فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

* *

* كتابه إلى كسرى ملك فارس :

أما كتابه ﷺ إلى ملك الفرس فقد حمله إليه عبد الله بن حذافة السهمى وكان نصه: « بسم اللّه الرحمن الرحيم .. من محمد رسول اللّه إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى . وآمن باللّه ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية اللّه ؛ فإنى أنا رسول اللّه إلى الناس كافة لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين ، فاسلم تسلم فإن أبيتَ ؛ فإن إثم المجوس عليك » .

* *

* موقف ملك الفرس :

كان موقف ملك الفُرس من كتاب صاحب الدعوة ﷺ موقفًا غير كريم ، وهو أول موقف يقفه رئيس دولة من رسائل النبى فيه خشونة و غلظة . فقد غضب كسرى من أن محمدًا ﷺ كتب اسمه قبل اسم كسرى . فمزّق الكَتاب وقال : عبد حقير من رعيتى يكتب اسمه قبل اسمى ؟ ولما بلغ أمره رسول الله قال : « مزّق اللّه مُلْكه » . فلم يمض طويل وقت حتى انقض شيرويه بن كسرى عليه فقتله وتولى الأمر على فارس بعده . وعلم رسول الله ﷺ عن طريق الوحى بمقتل كسرى على يد ابنه شيرويه وذاع الخبر عنه فى شبه الجزيرة العربية حتى وصل اليمن ، وكان اليمن خاضعًا سياسيًا لمملكة فارس . ولما جاءت الأنباء من فارس نفسها تؤكد الخبر ، أسلم باذان ملك اليمن من قبل فارس وأسلم كل

الفرس الذين كانوا فى اليمن ، بسبب صدق الخبر عن صاحب الدعوة الذى أذاعه ليلة وقوع الحادث [1]

*

* مغزى هذا الموقف :

إذا كان موقفا النجاشى والمقوقس من رسالتى رسول الله إليهما يخلوان مما يدعو إلى أى رد فعل عنيف ، فإن موقف ملك الفُرس كان يقتضى إعلان الحرب عليه وعلى مملكته ، للإهانة البالغة التى صدرت منه للرسالة والرسول . ومع هذا فإن شيئًا من هذا لم يكن . ومؤدى هذا كله أن حمل الناس على الإسلام بقوة السلاح لم يكن ولن يكون أبدًا فى الإسلام.

* *

*كتابه إلى ملك الروم :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على مَن اتبع الهدى ، أسلم تسلم . أسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللهِ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [2].

وحمل الكتاب إلى هرقل الصحابى الجليل دحية بن خليفة الكلبى ، ولم يتسرع هرقل فى الرد ، بل دعا إليه رجالاً من قريش كانوا بالشام للتجارة ، وفيهم أبو سفيان بن حرب، فأخذ يسأل أبا سفيان ـ وكان ذلك قبل إسلامه ـ أسئلة دقيقة عن حياة صاحب الدعوى ﷺ قبل البعثة وبعدها . ودار بينهما حوار طويل قال هرقل عقبه لأبى سفيان : «إن كان ما تقول ـ أى عن النبى ـ حقًا ، فسيملك موضع قَدمىّ هاتين ، وقد كنتُ أعلمُ أنه

(١) انظر : تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى : ١/١٤٧، وفتح البارى : ٨/١٣٧

(٢) صحيح البخارى : ١/٤ ـ ٥

خارج - أى مبعوث من عند الله - ولم أكن أظنه أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه - أى أصل إليه - لتجشمتُ لقاءه - أى لتحملتُ المشاق فى سبيله - ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدميه » .

ثم أكرم مبعوث رسول الله ﷺ - دحية الكلبى - وحَمَّله عند عودته من عنده إلى المدينة هدايا نفيسة .

وموقف هرقل - كما ترى - موقف كريم شبيه بموقف المقوقس عظيم القبط بمصر . صحيح أن هرقل لم يعلن إسلامه ولا إسلام قومه ، بَيْدَ أن بعض الروايات تذهب بأنه هَمَّ بإعلان إسلامه ، ولكن الروم ، أو أهل الحماقة منهم ، ثاروا عليه ثورة عظيمة ، فجبن أمامهم وقال : إنى أردت أن أختبركم ، ولم أكن أقصد ما أقول ؟ ! .

وهذه الرواية لها ما يقويها من كلام هرقل الذى ذكرناه آنفًا من تعقيبه على الحوار الذى دار بينه وبين أبى سفيان بن حرب . وأيًا كان الأمر فإن كتاب صاحب الدعوة ﷺ إلى هرقل كان فتحًا عظيمًا للدعوة بالطرق السلمية. وفيه بلاغ وافٍ بالإسلام .

* *

* كتابه إلى المنذر بن ساوى :

كما كتب ﷺ كتابًا إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين ، وحمله إليه مبعوث رسول الله ﷺ — العلاء بن الحضرمى — يدعوه فيه إلى الإسلام ، فكتب المنذر كتابًا إلى صاحب الدعوة ردًا على كتابه قال فيه :

« أما بعد : يا رسول الله ، فإنى قرأتُ كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ، ودخل فيه . ومنهم مَن كرهه . وبأرضى مجوس (فُرس) ويهود ، فأحدث إلىَّ فى ذلك أمرك » .

فكتب إليه ﷺ كتابًا آخر قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك. فإنى أحمد إليك الله ، الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله . أمابعد : فإنى

أذكرك اللّه عزّ وجلّ ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومَن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً ، وإنى قد شفعتك فى قومك . فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذّنوب ، فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك . . ومن أقام على يهودية ، أومجوسية فعليه الجزية » (١) .

فهذه وثيقة أخرى من وثائق سماحة الإسلام ، إذ تضمن هذا الكتاب صدور العفو عمن أبى أن يعتنق الإسلام من غير اليهود والفرس الذين كانوا فى البحرين فى ذلك العهد، كما أقرّ صاحب الدعوة إبقاء اليهود والمجوس فيها على يهوديتهم ومجوسيتهم ، ولو كان من مبادئ الإسلام أن يفرض نفسه على الناس ، وهم له كارهون ، ولو كان بقوة السلاح ، لما توانى صاحب الدعوة لحظة فى إعلان هذا الإجراء ، لكن الإسلام - دين الفطرة - أقدر على سياسة النفوس من أن يضيق بها ذرعًا إذا أُعرضت عن هداه .

إن فى هذه الوثيقة - وغيرها كثير - دحضًا قويًا لأولئك الذين يهرفون بما لا يعرفون عن الإسلام ، أو يعرفون ولكن الحقد أعمى أبصارهم ، وأصم آذانهم، وأوغر صدورهم . وحسابهم عند الله عسير .

* *

* كتابه إلى أمير اليمامة :

وفى إطار التبليغ بما أنزل الله ، كتب رسول الله ﷺ إلى أمير اليمامة هوذة بن علىّ كتابًا قصيرًا جاء فيه :

« بسم اللّه الرحمن الرحيم .. من محمد رسول اللّه إلى هوذة بن على ، سلام على مَن اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يدك » (٢) .

وحمل الكتاب إليه سليط بن عمرو العامرى ، فكتب هوذة ردًا قال فيه :

---

(١) زاد المعاد : ٣/ ٦١ ـ ٦٢

(٢) زاد المعاد : ٢/٦٣

« ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك » [١] .

ولكن رسول الله ﷺ قال : « لو سألنى قطعة من الأرض ما فعلت . باد ، وباد ما فى يديه » .

ومات هوذة عقيب فتح مكة ، ونعاه جبريل إلى رسول الله ﷺ . ولم يتخذ ﷺ أى إجراء حربى ضد هوذة فى حياته حتى مات .

* *

*كتابه إلى صاحب دمشق :

صاحب دمشق هو الحارث بن أبى شمَّر الغسانى ، وإليه كتب رسول الله ﷺ الكتاب الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر : سلام على من اتبع الهدى ، وآمن به وصدَّق ، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك مُلْكك » [٢] .

وحمل إليه الكتاب شجاع بن وهب الأسدى . فلما علم الحارث بما فى الكتاب قال: مَن ينزع ملكى منى ؟ أنا سائر إليه .. ولم يُسْلم .

ووقف منه ومن رده صاحب الدعوة موقفه السلمى من الذين كاتبهم ولم يستجيبوا لدعوة الحق . ولوكان هدفه ﷺ فرض الإسلام بالقوة لجهز جيشًا وسار إليه ، إنما هدفه البلاغ والله ـ وحده ـ يتولى الحساب ، يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم .

هذه سبع رسائل بعث بها صاحب الدعوة إلى الأمراء والملوك يبلغهم فيها ما أنزل الله . اكتفينا بذكرها لنستخلص منها الحقائق الآتية :

---

(١) أى يشركه فى أمر النبوة .

(٢) المصدر السابق ، وتاريخ الأمم الإسلامية : ١/١٤٦

* خلاصات موجزة :

* هذه الرسائل السبع من المحاولات الأولى لتبليغ الدعوة إلى العالم الخارجى ، سواء أكان إلى أطراف شبه الجزيرة ، أو مابَعُد عنها ، وهى تعبر تعبيراً صادقًا عن روح الإسلام السمحة قولاً وعملاً .

* إن صاحب الرسالة الخاتمة وقف موقفًا سلميًا أمام جميع الردود التى كانت صدى لرسائله ، حتى مع الذين أساءوا التصرف فى ردودهم ، وصدرت عنهم حماقات يضيق بها صدر الحليم .

* وهذه الرسائل فيها تكذيب ودحض للدعاوى الجوفاء التى يروّجها الآن ـ وقبل الآن ـ خصوم الإسلام من الغرب ، وعملاؤهم من الشرق . حيث لم ترد عبارة : أسلم أو تمت ، أو ما فى معناها فى أية رسالة بعث بها صاحب الدعوة ﷺ إلى رؤساء الشعوب وملوكهم . ولكن : أسلم تسلم ، أى من عقاب الله وعذابه . وفى هذا نصح وتوجيه ، لايعادلهما أى نصح وتوجيه فى الوجود كله . وحسبنا هذا القدر من الدلالة على سماحة الدعوة إلى الإسلام فى السُنَّة القولية .

* * *

المبحث الثانى

سماحة الدعوة إلى الإسلام فى السنَّةِ العملية [1]

سماحة الدعوة فى السنّة العملية بدأت مبكرًا بمكة المكرمة قبل الهجرة ، فمنذ بدأ صاحب الرسالة ﷺ الجهر بالدعوة بعد ثلاث سنين كانت الدعوة فيها سرية ، ومما نزل فى هذا الشأن من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [2]

وقوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [3].

منذ هذا الوقت بالتحديد ، قامت قريش فى وجه الدعوة ، وشمرت عن سواعد هزلها وجدها لمناوأتها ودحرها ، والقعود لها بكل مرصد :

* تصد عن سبيل الله وتبغيها عوجًا .
* تؤذى صاحب الرسالة بالقول والفعل .
* تضطهد مَن آمن به وتعذبه بكل ألوان التعذيب .

فقد روى البخارى ومسلم موقف صاحب الدعوة لما نزل عليه قول الحق : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ يقول البخارى : « صعد النبى ﷺ على الصفا ، فجعل ينادى : «يابنى فهر ، يا بنى عدى» .. حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو (أى ما الخبر) فجاء أبو لهب وقريش ، فقال :« أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مُصَدّقى » ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا

---

(١) قد يكون الفرق طفيفًا بين السنَّة القولية والسنَّة العملية ، فالرسائل السبع التى أشرنا إليها من قبل وعددناها من السنَّة القولية ترتب عليها سنن عملية هى الاكتفاء بالبلاغ الذى فيها وعدم اتخاذ إجراءات أخرى ضد الرافضين للدعوة ، أما السنَّة العملية كالصلح الذى أمضاه صاحب الدعوة مع قريش عام الحديبية فهو سنَّة عملية يترتب عليها سنَّة قولية هى بنود الصلح نفسها التى أقرها الرسول . إذًا فالفرق بينهما أن السنَّة القولية ما قُصد فيها القول أولاً ، ثم ترتب عليها عمل . والسنَّة العملية ما قصد فيها العمل أولاً ثم ترتب عليها قول .

(٢) الشعراء : ٢١٤ (٣) الحجر : ٩٤ ـ ٩٦

صدقًا . قال : « فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تبًّا لك سائر اليوم - أى هلاكًا - ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ » [1] .

ويقول مسلم : « لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فعمَّ وخص ، فقال : يا معشر قريش ، انقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة بنت محمد ، انقذى نفسك من النار . فإني - والله - لا أملك لكم من الله شيئًا . إلا أن لكم رحمًا وسأبلها ببلالها » [2] .

* *

* موقف قريش :

رأت قريش فى الدعوة الجديدة ــ الإسلام ــ عدوًا لدودًا لها . فقد كانت وثنية تعبد اللاَّت والعُزَّى ومناة وهُبَل ، وأصنامًا أخرى كثيرة دنسوا بها البيت الحرام ، ونصبوها فى بيوتهم . فلما جاء الإسلام بالتوحيد الخالص ، علمت قريش أنَّ فى ذلك قضاء على آلهتها ودينها ودين آبائها ، بل وعلى سيادتها وعزتها التى كانت تتدثر بالكفر والوثنية .

لذلك آلت على نفسها بأن تقف لهذا الدين بالمرصاد ، وتكيد له ما وسعها الكيد . ونفذت رغباتها من خلال محورين كان الثانى منهما بديلاً عن الأول لما رأوا فشله وقلة جدواه .

أما الأول فكان - كما يسمى الآن - : الحرب الباردة .

وأما الثانى فكان : الاضطهاد والتعذيب والتنكيل ، وتضييق الخناق على كل مَن أسلم مهما كان قويًا - كأبى بكر - أم ضعيفًا مثل خباب بن الأرت . وفيما يأتى حديث موجز عن المحورين على الترتيب المذكور .

* *

---

(١) صحيح البخاري : ٢/٧٠٢ ــ ٧٤٣ (٢) صحيح مسلم : ١/١١٤

* الحرب الباردة :

جرَّبت قريش فى التصدى للإسلام حرب الفكر أو الدعاية المضادة ، ونشطت فى هذا المجال نشاطًا واسع النطاق ، سواء فى مكة أو خارجها ، ووزعت جهدها فى ذلك على عدة جهات :

فمنها ما يختص بصاحب الدعوة ﷺ ، ومنها ما يختص بالقرآن الكريم ، ومنها مايختص بأتباع الدعوة الأوَّلين .

فصاحب الدعوة اتهموه بأنه ساحر ، أو كاهن ، أو مجنون ، أو شاعر . وهذه التهم الأربع ورد ذكرها فى القرآن مع تفنيدها والرد عليها . من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ .. أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ (٦) .

وهذه الأقاويل كلها من وحى الشيطان . والشيطان له وحى يوحيه إلى أوليائه ، وليس هذا بخيال أو انتحال ، وإنما هو حقيقة . فإذا تخاصم مؤمن وملحد ، أو مُحق ومُبطل . وأورد المؤمن أو المحق براهينه فى حلبة الجدال ، سارع الشيطان يمد الملحد أو المبطل بأقاويل يزينها له ، ثم يخدعه ليظل على ضلاله من الإلحاد أو الباطل ، حتى لا تغلبه قوة الحق فينقاد له ، ويخسر الشيطان جنديًا من جنوده .

(١) يونس : ٢ (٢) سورة ص : ٤ (٣) الطور : ٢٩
(٤) الحاقة : ٤٢ (٥) الصافات : ٣٦ (٦) الأنبياء : ٥

هذه الظاهرة صاحبت الرسالات السماوية كلها ، فما من نبى أو رسول إلا وله عدو من الإنس والجن ، وقد حكى القرآن ذلك عن أعداء الرسالات قبل الإسلام . وما ردده أعداء الرسالة الخاتمة ما هو إلا صورة لما قاله أسلافهم من قبل .

يقول القرآن الأمين : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً .. ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ .. وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ (٣) .

* *

* ردود القرآن :

وقد رد القرآن ردودًا خاطفة على بعض هذه الافتراءات ، لأنها أقل من أن يُقام لها وزن. فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ... ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ (٥) .

وهو مع كمال عقله يمتاز عن العقلاء جميعًا، بأنه ﴿ مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ (٦) .

وفى القرآن مواضع أُخر لذكر بعض هذه الأباطيل والرد عليها ، وهى أباطيل كانوا - هم - لا يصدقونها ، بل يرددونها بأفواههم عنادًا وتكبرًا .

* *

* موقفهم من القرآن :

ومن حربهم الباردة التى شنوها ضد القرآن أن قالوا : إنه سحر ، وشعر ، وخرافات

---

(١) الأنعام : ١١٢ — (٢) الأنعام : ١٢١ — (٣) الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٣
(٤) يس : ٦٩ — (٥) التكوير : ٢٢ — (٦) النجم : ٣

الأولين تلقاها محمد ﷺ عن مُعَلِّم من البشر ، وليس وحيًا من عند الله ، ولو كان القرآن خيرًا لكانوا هم أولى باتباعه والإيمان به من أتباع محمد الذين أكثرهم فقراء وضعفاء ، واستبعدوا أن يكون صاحب الرسالة مختصًا بالوحى من دونهم .

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (1) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ .. ﴾ (2) .

﴿ .. هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ (3) .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (4) .

وقد تضمنت آية النحل أبلغ رد وأفحمه على دعوى المشركين أنَّ محمدًا يعلمه بشر ، وكان الذى ينسبون إليه تعليم صاحب الرسالة ﷺ رجلاً أعجميًا لا يعرف اللغة العربية ، ولا النبى يعرف اللغة الأعجمية التى يعرفها ذلك الرجل . وهو دليل عقلى قاطع مانع ؛ إذ لا يصح فى العقل أن رجلين لا يعلم كل منهما لغة الآخر أن يكون أحدهما أستاذًا ومعلمًا للآخر ، وهذ الدليل قائم فى العقل إلى الآن ، وحتى قيام الساعة .

ومن مواقفهم ضد القرآن الإعراض عن استماعه واللغو فيه وإثارة الضوضاء حوله حتى لا يسمعه أحد ، مثل ما تصنع الدول الآن من « شوشرة » ضد إعلام دول أخرى إذا كان بينها عداء ، وبخاصة وسائل الإعلام المسموع كالراديو .

وفى ذلك يقول الحق : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (5) .

* *

---

(1) الفرقان : ٥ ـ ٦ (2) الاحقاف : ١١ (3) الأنبياء : ٣

(4) النحل : ١٠٣ (5) فصلت : ٢٦ - ٢٧

* نصيب الأتباع من الحرب الباردة :

أما التابعون الأوّلون للدعوة ، فقد ازدرتهم قريش ، واحتقرتهم ، واتخذت منهم مادة للسخرية والإضحاك والتضحيك ، ورموهم بالسفه والضعف .

يقول القرآن الأمين حاكيًا استهزاءهم بالمؤمنين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُواْ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ ﴾ (١) .

وما يحكيه القرآن هنا صورة صادقة لما يسلكه الأشرار من الأبرار في كل عصر وأمة: أعمال ساقطة ، وأقوال بذيئة ، وحركات شيطانية وتعليقات مسفة. لذلك عقّب عليها القرآن فقال : ﴿ وَمَا أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ (٢) .

وحين كان يستميل صاحب الرسالة فريقًا منهم ليسمعوا كلام الله كانوا يشترطون طرد من حوله من الضعفاء والفقراء المؤمنين ، ولكن الله كان يثبت رسوله الكريم في كل مرة حتى لا يستجيب لمطالبهم : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (٣) .

ثم ينذر هؤلاء المتطاولين على المؤمنين بسوء المصير يوم القيامة لعلهم يتذكرون، فيحكى لهم طرفًا مما سيكون يوم القيامة : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ * اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ (٥) .

﴿ قَالَ اخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا

---

(١) المطففين : ٢٩ – ٣٢ (٢) المطففين : ٣٣ (٣) الكهف : ٢٨
(٤) المطففين : ٣٤ – ٣٦ (٥) سورة ص : ٦٢ – ٦٤

﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [1] .

إن الدعوة من سماحتها كان القرآن يعقب على كل صور الانحراف التى يحكيها عن المشركين بما هو كفيل أن يهديهم سواء الصراط ، ولكنهم آثروا الضلال على الهدى .

* *

* الصدّ عن سبيل الله :

ومن أساليب الحرب الباردة أن المشركين كانوا يوظفون كل تلك المطاعن التى أثاروها حول صاحب الرسالة ، وحول القرآن العظيم ، وحول أتباع الدعوة الأولين . كانوا يوظفونها فى الصدّ عن سبيل الله ، ومنع الناس من الدخول فى الإسلام ، فكانوا يتلقون الحجاج فى مواسم الحج إلى بيت الله ، ويثيرون الريب فى قلوبهم ويحذرونهم من الاستماع إلى صاحب الرسالة ؛ لأنه : ساحر ، أو شاعر ، أو كاهن ، أو مجنون ؟

ويحذرونهم من التصديق بالقرآن ؛ لأنه : سحر ، أو شِعر ، أو أساطير الأوَّلين ، أو إفك (كذب) افتراه محمد ﷺ .

ولما لم تُجد كل هذه الوسائل حاولوا استمالة صاحب الرسالة إلى مهادنتهم وعدم التعرض لدينهم ودين آبائهم ، وطلبوا ذلك مرات ، إما عن طريق العرض المباشر على صاحب الدعوة ، أو عن طريق عمه أبى طالب الذى كان يكفل النبى ويحميه من كيدهم. ولكن جهودهم كانت تفشل فى كل مرة ، وكان الإسلام يزداد قوة وانتشاراً وعزاً . فقد أسلم عمر بن الخطاب ، وهو من هو قوة وشكيمة ، كما أسلم حمزة بن عبدالمطلب ، وهو من عظماء الرجال . عندئذ تبيَّنت قريش أن وسائلها السابقة لم تعد تفيدهم شيئًا فى دحر الإسلام ، وفكرت أن تقتل رسول الله ﷺ ، ولكنها خشيت عاقبة هذا الأمر ، خاصة أن بنى هاشم وبنى المطلب تعاهدوا على حماية محمد ﷺ فى نفس

---

(١) المؤمنون : ١٠٨ ـ ١١١

المدة التى أسلم فيها حمزة وعمر رضى الله عنهما فازدادت الدعوة بهما قوة وحصانة . لذلك صممت قريش على تعديل فى خطة المواجهة بإدخال وسائل أخرى أشد وقعًا ، وأكثر عنفًا فاتخذت فى سبيل ذلك ما يأتى :

* التعذيب البدنى والاضطهاد :

اتخذت قريش قرارها الانتقامى بتعذيب صاحب الرسالة ﷺ وأصحابه الأوَّلين ، وكان هذا القرار صادرًا عن تشاور بينهم من خلال مجلس كُوِّن من خمسة وعشرين عضوًا من سادات قريش يرأسه أبو لهب عم رسول الله ، فقرروا أن لا تألوا قريش جهدًا فى محاربة رسول الله وإيذاء أتباعه وتعذيب الداخلين فى الإسلام والتعرض لهم بألوان من النكال والإيلام [1] .

ثم مضوا فى تنفيذ ذلك القرار . فأما صاحب الرسالة فلم يجرأوا أن ينالوا منه شرًا لمهابته وقوة شخصيته ، ولأن الله كان يؤيده بالخوارق كلما همَّ أحد منهم لينال منه، وكان من أشد الناس إيذاءً له جيرانه من المشركين ، منهم أبو لهب ، وامرأته ، وعقبة بن أبى معيط ، وعدى بن حمراء الثقفى ، وابن الأصداء الهذيل ، والحَكَم بن العاص وماتوا كلهم على الكفر إلا الحَكَم فقد أسلم . وكل ما ناله منه هؤلاء أمور خفيفة ليس لها وزن .

أما الداخلون فى الإسلام من الرعيل الأول فقد أوقعوا بهم أذىً فظيعًا ، وعذَّبوهم - بدنيًا - تعذيبًا شنيعًا ، وآلموهم إيلامًا موجعًا. وفى كتب السيرة وقائع من هذا القبيل . كما حدث لبلال رضى الله عنه وكان مولى لأمية بن خلف الجمحي ، فكان أمية يضع فى عنقه حبلاً . ثم يأمر الغلمان بتعذيبه وجره على الأرض . ثم يضربه بالعصا أو يلقيه فى الرمضاء عارى البطن والظهر ويضع على ظهره صخرة لئلا يتحرك ، أو يضع الصخرة على صدره ثم يقول: لا تزال على هذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ؟ فيقول بلال فى عزم وقوة : أُحُد . أُحُد . لاهجًا بكلمة التوحيد .

---

(١) ابن هشام : ٣٦٢/١

وما حدث لعمار بن ياسر وأبيه وأُمه ، إذ كان المشركون يوقعون بهم أشد ألوان التعذيب ، ويطرحونهم فى العراء تحت حر الشمس ورمضاء الرمال الحارقة ولا يرحمهم أحد ، وكان صاحب الدعوة إذا مرَّ بهم وهم يُعذَّبون لا يفعل شيئًا سوى أن يقول : « صبرًا آل ياسر ؛ فإن موعدكم الجنة » ، ومات ياسر أبو عمار تحت وطأة العذاب . أما سُمَيَّة - أم عمار - فقد طعنها أبو جهل بحربة فى « قُبُلها » فكانت أول شهيدة فى الإسلام، ثم تفرغوا لعمار فضاعفوا تعذيبه بكل قسوة وغلظة وهم يقولون له : لن تترك حتى تسب محمدًا ، أو تمدح آلهتنا ، فتظاهر بالقول ليفدى نفسه . ثم قدم على صاحب الرسالة ﷺ باكيًا معتذرًا فأنزل الله فيه قوله تعالى : ﴿ .. إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ..﴾ [1] .

وما فعلوه مع بلال ومع آل ياسر فعلوه مع خباب بن الأرت فكانوا يضعون على ظهره الفحم الملتهب ، أو يرصون فوقه الصخور حتى لا يستطيع حراكًا ؟!

وصنعوا مثل هذا مع الإماء اللاتى أسلمن . كل ذلك والمسلمون - سواء منهم مَن عُذّب ومَن كانت له عشيرة تحميه - لا يملكون إلا الصبر الجميل وقوة الاحتمال ، وكان صاحب الدَّعْوة يُرغّبهم فى الصبر ، ويذكر لهم قصص المؤمنين فى التاريخ النبوى القديم، وكيف كانوا يتدثرون بالصبر على ما أصابهم ، فما ضعفوا وما استكانوا حتى لقوا الله صابرين محتسبين .

* *

* الهجرة إلى الحبشة :

وخاف فريق من المؤمنين من أن يُفتنوا فى دينهم تحت وطأة التعذيب ، التى اشتدت فى السنة الخامسة من البعثة الشريفة ، وكان الذى أوعز إليهم بالهجرة نزول سورة الكهف التى وردت فيها قصة الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدىً ، وهجروا قومهم إلى الكهف فرارًا بدينهم . فلاحت فكرة الهجرة من مكة التى ضاق بهم فيها المقام .

---

(١) النحل : ١٠٦

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ (١) .

ففى رجب سنة خمس من البعثة هاجر أول فوج من مكة إلى الحبشة مكونًا من اثنى عشر رجلاً وأربع نسوة ، كان يرأسهم عثمان بن عفّان ، ومعه زوجه الطاهرة رقية بنت صاحب الرسالة . وفى هذه الهجرة يقول ﷺ : « إنها أول بيت هاجر فى سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام » (٢) . وخرج الفوج من مكة ليلاً حتى لا تشعر بهم قريش فتحول بينهم وبين الخروج .

ثم هاجر المسلمون مرة ثانية إلى الحبشة لما اشتد عليهم العذاب من قريش ، وكان عددهم نحوًا من ثلاثة وثمانين رجلاً ، وتسع عشرة امرأة ، وقد أكرم النجاشى ملك الحبشة وفادتهم ، وقد حاولت قريش أن يتخلى النجاشى عنهم ، ولكن الله أحبط محاولاتهم ومكّن لمهاجرى المسلمين المقام الكريم فى الحبشة .

* *

* تهديد أبى طالب :

مشى سادات قريش إلى أبى طالب عم النبى يهددونه بالحرب إذا لم يكف صاحب الرسالة عنهم ، وقالوا له : « يا أبا طالب ، إنّ لك سنًا وشرفًا ومنزلة فينا ، وإنَّا قد استنهيناك ابن أخيك فلم تنه ، وإنَّا - والله - لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين » .

ولما قص أبو طالب القصة على صاحب الرسالة وقال له : « هوّن علىَّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ، وثب عليه السلام وثبته الخالدة وقال لعمه : « واللهِ - يا عماه - لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى وخزائن الأرض طوع يدىّ ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى أهلك فيه، أو يظهره الله » .

---

(١) الكهف : ١٦ (٢) زاد المعاد : ١/٢٤

وإزاء هذا الإصرار رقّ قلب أبى طالب وقال : اذهب يا بن أخى وقل ما أحببتَ ، فواللّهِ لا أسلمك لشىء أبدًا .

وحاولت قريش مرة أخرى التفاوض مع أبى طالب على أن يعطوه فتى وسيمًا حكيمًا من فتيانهم ليتخذه ولدًا ، ويعطيهم محمدًا ليقتلوه ؟ فثار أبوطالب فى وجوههم وسفّه رأيهم ورفض ما أرادوا ، وقال لهم : افعلوا ما بدا لكم .

* *

* مؤامرة لقتل صاحب الدعوة :

فكرت قريش فى قتل صاحب الدعوة ، وحاولوا ذلك مرات ولكن الله أبى ؛ لأنه حافظ رسوله من كيد الكائدين .

* *

* مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب :

وفى العام الثامن من البعثة الشريفة عزمت قريش - إلا قليلاً منهم - على مقاطعة بنى المطلب وبنى هاشم عشائر النبى . وقرروا : أن لا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يجالسوهم ، ولا يخالطوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم ، ولا يكلموهم حتى يسلموا لهم رسول اللّه ﷺ ليقتلوه . وكتبوا بذلك صحيفة ، وعلقوها فى جوف الكعبة . فدعا رسول اللّه على كاتبها فشُلَّت يده .

إنه - بلغة العصر - حصار اقتصادى واجتماعى عنيف ضد النبى ومناصريه، وانحاز بنو المطلب وبنو هاشم إلى شِعْب أبى طالب ، وقضوا فيه ثلاثة أعوام لقوا فيها عنتًا وقسوة وحُرِمُوا أسباب الحياة من الطعام والشراب ، فأكلوا أوراق الشجر والجلود ، وهزلت أجسامهم واصفرت وجوههم من الجهد والحرمان .

وفى المحرّم من السنة العاشرة قام خمسة من شباب قريش أمهاتهم من بنى المطلب فنقضوا الصحيفة ومزّقوها وفكوا الحصار الذى كان مضروبًا على النبى ومناصريه . ووجد هؤلاء الشباب الخمسة معارضة شديدة من سادات قريش ، ولكن الله كان بالمؤمنين رحيمًا.

والشباب الخمسة هم : هشام بن عمرو ، وزهير بن أمية ، والمطعم بن عدى ، وأبو البحترى ابن هشام ، وزمعة بن الأسود .

وبهذا العمل الجليل أزال الله عن النبى ومناصريه الغمة ، وأحلّ اليُسر مكان العسر ، والفرج مكان الضيق . وانتصر الحق على الباطل وظهرت للأعداء قوة الإسلام . والعاقبة للتقوى .

❊ ❊

* خلاصات موجزة :

سردنا فى إيجاز سريع موقف قريش من الدعوة قبل الهجرة ، وركزنا على ما بذلته من جهود فى حربها الباردة وحربها الساخنة ضد الإسلام : رسولاً وقرآنًا وأتباعًا . وكيف أنزلت صنوف التعذيب بالضعفاء من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وتفننت فى وسائل التعذيب بالقدر المتاح لها كما تتفنن زبانية النظم الحديثة ضد خصومها السياسيين الآن فى دول العالم : أساليب إجرامية وحشية تعصف بكل قيم الإنسانية الرحيمة . ومع ذلك فإن المسلمين فى مكة فى ذلك الوقت لم يشهروا فى وجوه جلاديهم رمحًا ولا سيفًا ، ولم ينثروا عليهم نبالاً ، ولم يرشقوا سهمًا ، بل تحلوا بالصبر ، واحتسبوا ما نالهم عند الله واضطر فريق منهم إلى ترك البلاد فرارًا بدينهم .

والقرآن العظيم الذى كان جبريل روّاحًا به غدَّاء - كما قال أمير الشعراء شوقى - لم يأمرهم بقتال عدوهم ، ولو كان أمرهم لفعلوا . وقد استأذن بعضهم صاحب الرسالة فى التصدى للعدو مرات ، فكان يقول : « لم أُوذن بقتالهم » ، حتى كانت الهجرة الكبرى إلى يثرب بعد عشر سنين من الجهر بالدعوة ، فأين الإرهاب والعنف وسفك الدماء ومصادرة الحريات التى يتهمون بها الإسلام إذن ؟ هذا فيما يتصل بالعهد المكى قبل الهجرة .

❊ ❊

* سماحة الإسلام في العهد المدنى بعد الهجرة :

بقى جانب مهم من سماحة الدعوة إلى الإسلام فى العهد المدنى بعد الهجرة . وقد بدأ

عقب الهجرة مباشرة . وترجع أهمية هذا الجانب إلى أن أعداء الإسلام المعاصرين قد يقولون - وقد قال بعضهم بالفعل - إن المسلمين فى مكة ، قبل الهجرة تحمّلوا ما تحمّلوا ، لأنهم كانوا ضعفاء ولا قُدرة لهم على جحافل قريش وهم ذوو قوة وبطش .

أما فى العهد المدنى بعد الهجرة فمثل هذا القول غير متاح لأعداء الإسلام فاللّه قد أعز فيه الإسلام بعوامل قوة لم تُتَح لهم قبل الهجرة .

* فمن ذلك إعزاز الله الإسلام بالأنصار من أوس وخزرج وهم أهل يثرب. بما لهم من قوة عددية ، وخبرة قتالية ، وتمرس على فنون القتال .

* ومنها جمع شمل المهاجرين من أهل مكة ، وحصولهم على الأمن والاستقرار .

* ومنها تنظيم مجتمع المدينة الجديد ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

* ومنها قيام الدولة الإسلامية الحديثة متمتعة بكل ما تتمتع به الدول قديمًا وحديثًا من أركان قيام الدول واستقلالها . ومع هذا توشحت الدعوة إلى الإسلام فى ظل هذه القوة بالسماحة وسعة الصدر كماكانت قبل الهجرة ، وإذا أمكن لأعداء الإسلام أن يُفسّروا سماحة الدعوة قبل الهجرة بالضعف وقلّة الحيلة ، فلن يمكن لهم أن يُفسّروا سماحة الدعوة بعد الهجرة ذلك التفسير ، ولو فعلوا ما صدّقهم أحد . هذا هو معنى الأهمية الذى أشرنا إليه من قبل ، ولنأخذ - الآن - فى سوق الأدلة من السيرة العطرة المنقولة إلينا عبر الأجيال والعصور نقلاً متواترًا .

* *

* معاهدة اليهود وإقرارهم على عقائدهم :

عادى اليهود الدعوة إلى الإسلام من أول يوم سمعوا بها فيه ، لأن التوراة التى كانت بين أيديهم بشّرت - مرات - برسول جديد يختتم به الله الرسالات السماوية ، وكانوا يعتقدون أنهم سيكونون مصدر ذلك الرسول ، وكانوا يهددون أهل يثرب بظهوره منهم فتكون لهم الغلبة عليهم فى يثرب . فلما بعثه الله من العرب حقدوا وحسدوا وأضمروا العداء ، ثم تورّطوا فى محاربة الدعوة قبل الهجرة ، إذ كانوا بمثابة المستشار لمشركى مكة ، الذين كانوا يلجأون إلى اليهود ، لأنهم أهل كتاب ، ولهم خبرة بالتاريخ النبوى

فكان اليهود يمدونهم بالأسئلة التي يجادلون بها صاحب الرسالة ﷺ . ومع هذا فماذا صنع معهم بعد أن استقر به المقام بالمدينة ؟

عرض عليهم الإسلام فأبوا . فلم يجبرهم عليه بقوة السلاح ، ولم يستعمل ضدهم أية وسيلة من وسائل الضغط والإكراه ، بل عقد لهم معاهدة أمان سلمية ، أقرّهم فيها على عقائدهم وتأدية شعائرهم وطقوسهم الدينية حسب ما يعتقدون ، وجعلهم مواطنين لهم من الحقوق ، وعليهم من الواجبات ما على المسلمين سواء بسواء ، لا محاباة ولا ظلم فيها ، وفيما يلي نصوص وبنود المعاهدة :

* نصوص المعاهدة بين المسلمين واليهود :

« إنّ يهود بني عوف أُمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم . كذلك لغير بني عوف من اليهود .

وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .

وإن بينهم النصر على مَن حارب أهل هذه الصحيفة .

وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه .

وإن النصر للمظلوم .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

وإنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى اللّه عزّ وجلّ ، وإلى محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

وإنه لا تُجار قريش ، ولا مَن نصرها .

وإن بينهم النصر على مَن دهم يثرب ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم » [1] .

هكذا بكل وضوح وصراحة وعدل ومساواة أُبْرمت المعاهدة بين اليهود ، وبين المسلمين، والنظر فى بنود المعاهدة يرينا حقيقة رائعة ، وصورة ناصعة لسماحة الإسلام دين الفطرة ، تلك الصورة الرائعة هى :

المساواة التامة بين اليهود والمسلمين فى كل الحقوق والواجبات العامة والخاصة . ليس فيها محاباة ولا مضارة لأحد . اللّهم إلا فى الدين . فلليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، وما عدا ذلك فهم سواء فيه .

ومن سماحة الإسلام أن بندًا من بنود المعاهدة دمج دمجًا تامًا بين اليهود والمسلمين فجعلهم أُمة واحدة ، وهو البند الأول ، كذلك فإن البند الرابع نص على التعامل بين الفريقين بالنصح الخالص دون الخداع والغش . وبالبر والإحسان دون الظلم والإثم .

وأن البند الثامن جعل يثرب ـ المدينة ـ وطنًا للجميع لا فرق بين يهودى ومسلم . كلهم فى ذلك سواء .

* *

* ملحظ ذو خطر :

فى البند التاسع نص دستورى ذو خطر عظيم ، وهو الذى اختص بالحكم فى المنازعات التى قد تحدث فى المستقبل بين أهل يثرب ـ المدينة ـ بكل طوائفهم يهودًا ومسلمين . فقد جعل هذا النص الدستورى أن أساس الحكم فى ذلك مرده الله ورسوله : أى أصول الشريعة الإسلامية قرآنًا وسُنَّة . وقد وافق اليهود ـ ضمنًا ـ على هذا النص الذى معناه :

أولاً : أن الفصل فى المنازعات والخصومات أيًا كان نوعها يخضع لشريعة الإسلام ، سواء أكان أطراف الخصومة يهودًا أو مسلمين أو مختلفين : طرف يهودى ، وطرف مسلم. فعلى القاضى المسلم أن يُحكّم شريعة الله بين المتنازعين غاضًا الطرف عن الانتماء الدينى لأطراف الخصومة .

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/٥٠٣ ـ ٥٠٤

ثانيًا : أن ما يتصل بشئون العقيدة والعبادة لا قيد فيه على أحد ، يمارس اليهود عبادتهم على وفق عقيدتهم فى حرية تامة لا سلطان لأحد عليهم ، وكذلك المسلمون يتمتعون بحرية تامة فى شئون العقيدة الإسلامية ، والعبادات المتفقة معها .

هذا النص الدستورى العام فيه دحض واضح لما يردده مَن لا فقه لهم بالإسلام وأصوله، الذين يقفون فى وجه تطبيق الشريعة فى مصر بحُجَّة أن مصر بها غير مسلمين من مواطنيها القبط . فكيف تُطَّبق الشريعة عليهم وهم بها غير مؤمنين ؟

هذه الشبهة مدفوعة بكل قوة وحسم ، لأن الشريعة لن تطبق عليهم إلا فى الحكم فى المنازعات التى طرفاها غير مسلمين إذا رفع أحدهم الدعوى أمام القضاء .

أو كانت الخصومة ناشئة عن جريمة ارتكبها أحدهم ضد الآخر من الجرائم التى تتولى النيابة العامة رفع الدعوى فيها كالاعتداء على المال أو العرض أو النفس أو ما دون النفس من الأطراف وأعضاء الجسم .

أو كانت الخصومة بين طرفين مسلم وغير مسلم . فى جميع هذه الحالات تطبق شريعة الله .

أما ما يتصل بالأمور الدينية البحتة من مراسم التزويج أو العبادات فهذا لهم فيه مطلق الحرية ، ولا سلطان لأحد عليهم ، حتى الخمور إذا شربوها معتقدين حليتها عندهم فلهم ذلك ما لم يخل شربها بالنظام العام كظهور شاربها فى الطريق العام وهو يترنح ويهذى ويقذف غيره ويسبه .

هذه هى سُنَّة رسول الله فى الحكم عمل بها مع نشأة الدولة الإسلامية عقب الهجرة مباشرة . وإذا قضى الله ورسوله أمرًا فلا مناص من امتثاله والعمل به مهما لغط الكارهون لما أنزل الله . وقد جرَّب قبط مصر سماحة الإسلام منذ فجر التاريخ الإسلامى فى مصر ، وسماحة الإسلام هى ظله الذى لا ينفك عنه فى كل عصر وبيئة ، شريطة أن يتولى الحكم بالإسلام رجال فاقهون له ، عالمون بأصوله ومقاصده ، لا رجال ليس لهم من الإسلام نصيب سوى الأسماء والوراثة الفارغة من كل محتوى .

* *

* سماحة .. لا إرهاب :

معاهدة النبى ﷺ لليهود وثيقة من أعظم وثائق التاريخ على سماحة الإسلام ، وسعة صدره . فقد أقرّ اليهود على عقائدهم وشعائرهم الدينية . ولم يُكْرِههم على قبول الإسلام وهم له رافضون . ولو كان من مبادئ الإسلام حمل الناس على اعتناقه بالقوة لما وضع صاحب الرسالة ﷺ تلك المعاهدة العادلة بينه وبينهم ، ولناصبهم العداء منذ قيام دولة الإسلام فى المدينة ، أو لأهملهم دون أن يعقد معهم أى اتفاق ريثما يستعد لمصاولتهم ، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث .

وظل اليهود يتمتعون بالمزايا الدينية والاجتماعية ، ويرفلون فى حلل الحرية والأمن دون أن يتعرض لهم أحدٌ بسوء ، عملاً بما جاء فى تلك المعاهدة المبرمة بين الطرفين . وفىَّ لهم المسلمون بكل حرف فيها ، ولكن لمَّا نقض اليهود أنفسهم بنود المعاهدة ، وتآمروا على الإسلام وعلى المسلمين ، وناصروا عدو المسلمين عليهم وجب أن يعاملوا بالمثل كما سيأتى فى الفصل الخامس من هذه الدراسة .

* *

* صلح الحديبية :

بعد هجرة المسلمين إلى المدينة ظلوا محرومين من دخول مكة ، والبيت الحرام للصلاة فيه والطواف حول الكعبة ، والسعى بين الصفا والمروة ست سنين ، وقد طال شوقهم إلى مكة والبيت الحرام . ورحمة من الله بعباده أرى رسوله رؤيا منامية - ورؤيا الأنبياء وحى - أنه هو وصُحبه يدخلون المسجد الحرام للعمرة آمنين ، محلّقين رءوسهم ومقصّرين . فقص النبى أمر هذه الرؤيا على أصحابه ففرحوا . وخرج عليه السلام إلى مكة للاعتمار فى ألف وخمسمائة من أصحابه وساقوا معهم الهدى وقلّدوه ولم يحملوا معهم سلاح قتال ، وبث النبى العيون ليأتوه بخبر قريش ماذا تفعل إذا علمت بمقدم المسلمين بقيادة صاحب الدعوة ﷺ .

وجاءته العيون تؤكد إصرار قريش على قتاله ومنعه من دخول مكة ، وحين عسكر النبى وأصحابه قريبًا من مكة عند الحديبية ، جهزت قريش جيشًا بقيادة خالد بن الوليد قبل أن

يسلم ، وعسكر خالد بجيشه قريبًا من معسكر المسلمين ورآهم خالد يصلون الظهر جميعًا خلف رسول الله فحدثته نفسه أن لو عادوا إلى الصلاة هكذا مرة أخرى أن يباغتهم وهم غافلون فى الصلاة فيحصدهم حصدة واحدة . أى فى صلاة العصر . فأنزل الله تشريع صلاة الخوف الذى يقضى بتقسيم الجيش قسمين ، قسم يبدأ الصلاة جماعة خلف رسول الله ، وقسم يقف خلفهم بالسلاح يحمونهم من إغارة العدو عليهم . ثم يسرع القسم الذى صلّى خلف النبى أولاً فيكملون صلاتهم قبل فراغ النبى من إتمام كل الصلاة ، ثم يأتون فيأخذون مكان القسم الأول من المراقبة والحراسة ، ويلحق القسم الثانى فيُصلّى خلف النبى جماعة ما بقى من الصلاة ، ثم يكملون صلاتهم بعد سلامه منها . وبهذا فوّت القرآن على خالد بن الوليد فرصة الانقضاض على المسلمين وهم فى الصلاة .

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً .. ﴾ (1) .

هذا ، وقد أوفد النبى إلى قريش مَن يخبرها أنه جاء معتمرًا ولم يجئ محاربًا ، فأوفدت قريش أربع وفادات الواحد تلو الآخر ليتأكد من صدق الخبر ، وفى كل مرة كان يرى الوافد أن المسلمين ساقوا معهم الهَدْى وأن قصدهم العُمرة وليس القتال . ثم أوفد إليهم صاحب الرسالة ﷺ عثمان بن عفان متحدثًا رسميًا عن المسلمين بأنهم جاءوا معتمرين لامقاتلين . وبعد جهد جهيد وافق سادات قريش دون شبابهم على عقد الصلح ، فأوفدوا سهيل بن عمرو لينوب عنهم فى إبرام الصلح مع المسلمين ، فتكلم سهيل طويلاً مع صاحب الرسالة ﷺ ، ثم اتفقا على بنود الصلح وهى :

* بنود صلح الحديبية :

١ - الرسول ﷺ يرجع من عامه (هذا) فلا يدخل مكة . وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثًا - أى ثلاث ليال - معهم سلاح الراكب - أى السلاح الذى اعتاد

---

(1) النساء : ١٠٢

العرب حمله فى أسفارهم : السيوف فى القرب - أى مغمودة فى كساويها - ولا يتعرض لهم بأى نوع من أنواع التعرض .

٢ - وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين : يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض .

٣ - مَن أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومَن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها دخل فيه . وتُعتبر القبيلة التى تنضم إلى أى الفريقين جزءًا من ذلك الفريق . وأى عدوان تتعرض له أى من هذه القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريق .

٤ - مَن أتى محمدًا من قريش من غير إذن وليه ردّه عليهم ، ومَن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يُرَد عليه ؟ !

هذه هى بنود الصلح ، وهى غير متكافئة : إذ اشترطت قريش على النبى أن يرد عليها كل مَن جاء إليه هاربًا من قريش ، وأن لا ترد هى عليه مَن جاءها هاربًا من الذين اتبعوه ﷺ ، وقد أثار هذا البند سخطًا عظيمًا بين أصحاب رسول الله ﷺ ، وأبدوا معارضة شديدة حوله ولكنه - عليه السلام - بثاقب نظره ، وسعة أُفقه أقره . وهذه بلا نزاع سمة من سمات سماحة الإسلام .

وقد اكتنف عقد الصلح وقائع أخرى ذات دلالة واضحة على سماحة الإسلام .

* من ذلك أن سهيل بن عمرو - وكيل قريش والمفاوض باسمها - عندما أملى رسول الله ﷺ عليًا رضى الله عنه كاتب عقد الصلح أن يكتب : « بسم اللّه الرحمن الرحيم » . رفض سهيل كتابتها وقال : ما ندرى ما الرحمن ؟ اكتب : « باسمك اللّهم » فأمر النبى عليًا بكتابة ما أشار به سهيل .

* ومنها أن النبى لما أملى عليًا قوله : هذا ما صالح محمد رسول الله اعترض سهيل قائلاً : لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : « محمد بن عبد الله » فقال عليه السلام : « انى لرسول الله وإن كذّبتمونى » ثم أمر عليًا أن يكتب : « محمد بن عبد الله » ويمحو كلمة « رسول الله » فامتنع علىّ رضى الله عنه فمحاها ﷺ بيده ، وأكمل على كتابة العقد .

* ومنها : أن سبعين شابًا من قريش لما رأوا كبار القوم يميلون إلى التصالح مع صاحب الرسالة ، وكانوا هم يريدون القتال ، تسللوا خِفية إلى معسكر المسلمين ليبدأوا معهم القتال ويُفوّتون على قومهم فرصة التصالح ، إذ سيجبرونهم على قبول الأمر الواقع . فتنبه إليهم محمد بن مسلمة قائد الحرس الإسلامى فاعتقلهم جميعًا دون قتال ، ولكن رسول الله ﷺ أفرج عنهم جميعًا دون أن يمسسهم أحدٌ بسوء ، وأدًا للفتنة ، وحقنًا للدماء .

* ومنها أنه ﷺ قال قبل وقوع هذه الأحداث جميعًا : « والذى نفسى بيده ، لايسألونى (اليوم) خطة يعظمون فيها حرمات اللّه إلا أعطيتهم إياها » ومن حرمات الله حفظ الدماء . هذه وقائع ناصعة البيان تنطق بلسان فصيح عن سماحة الإسلام ورحابة صدره ، وأنه دين يتحمل سقطات الأعداء وحماقاتهم ويعفو أجمل ما يكون العفو ، ويصفح أروع ما يكون الصفح ، يرعى حرمات الله والناس ، ويكره الفتن ، ويبذل ما يستطيع البذل لإقرار السلام والأمان بين الناس ، وإن كانوا قد ناصبوه هم العداء وضاقوا هم به ذرعًا .

فأين الإرهاب وسفك الدماء ومصادرة الحريات فى الإسلام ؟ وهذا تاريخه ، وتلك سيرة رسوله ورجاله الأوّلين .

أفما كان من حق المسلمين أن يخرجوا من المدينة مدججين بالسلاح لتنفيذ رؤيا رسول الله وهى وحى صادق من الله .

ثم أفما كان من حقهم أن يأبوا على سهيل كتابة : « باسمك اللّهم » ويصروا على كتابة : « بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ .

وكذلك أما كان من حقهم أن يصروا على كتابة : « محمد رسول الله » بدل « محمد بن عبد الله » كما أراد سهيل بن عمرو مندوب قريش فى إجراء عقد الصلح وإمضائه ؟

ثم أما كان من حقهم أن يُعملوا السلاح فى الشباب السبعين الذين اعتقلهم محمد بن مسلمة حين أرادوا مهاجمة معسكر المسلمين وهم آمنون ؟

بل أما كان من حقهم أن يحتفظوا بهم أسرى حرب ويتخذوا منهم وسيلة ضغط على قريش فى أثناء التفاوض على الصلح ؟

أجل .. كل ذلك كان من حقهم ولو كانوا قد فعلوا لما وجد نقاد السيرة والتاريخ الإسلامى أية ذَرَّة من الاتهام يدينون بها المسلمين الأولين على ما فعلوا.

ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث ؛ لأن الإجرام والعدوان ليسا من أخلاق الإسلام ، بل ما جاء الإسلام إلا ليمحو الباطل فى أى صورة من صوره ، ومنها الإجرام والغدر والعدوان والظلم .

ونكتفى بهذا القدر من النماذج الحية على سماحة الدعوة إلى الإسلام فى النشاط النبوى من السُنَّة العملية ؛ لأن قصدنا الإيجاز لا الإطالة ، وفى ما سقناه من نماذج وثيقة الصلة بالإسلام تكذيب ـ وأى تكذيب ـ للدعاوى الجوفاء التى يثيرها خصوم الإسلام ـ الآن ـ من الغرب ، ومن عملائهم من الشرق حُمْرًا كانوا أو سودًا .

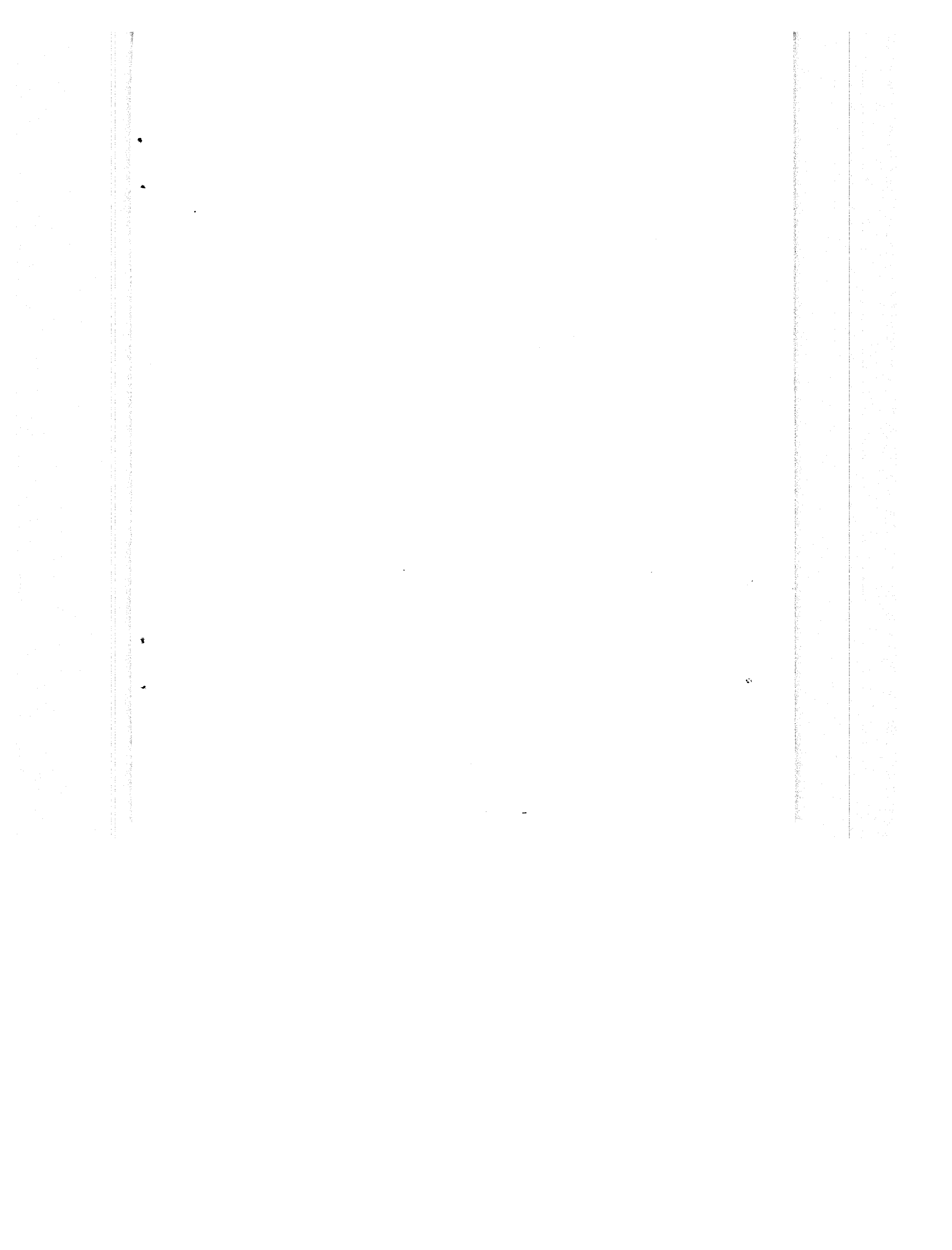
❊ ❊ ❊

المرحلة الثانيـــة للدعوة الإسلامية

مشروعية القتال ، وضوابطه

* متى ولماذا شرع القتال في الإسلام ؟
* ضوابط ممارسة القتال وأخلاقياته .
* حقيقة العلاقة بين المسلمين وغيرهم .

* * *



﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(البقرة : ١٩٤)

* * *

الفصل الأول

متى .. ولماذا شُرِع القتال فى الإسلام

أما متى شُرِع القتال فى الإسلام ، فالمحقق الذى لا خلاف فيه أنه شُرِع عقب الهجرة إلى المدينة ، ولكن تحديد الزمن بالضبط غير معروف . والمحقق كذلك أنه شُرِع بعد الهجرة مبكراً قبل إرسال السرايا والبعوث العسكرية إلى المناطق المتاخمة للمدينة . لأن هذه السرايا والبعوث العسكرية ما كانت ستكون إلا بعد مشروعية القتال .

وقد مرَّت مشروعية القتال فى الإسلام بمرحلتين مختلفتين :

إحداهما ــ وهى الأولى ــ كانت مقصورة على مجرد الإذن. أى رفع الحظر فيه، فأصبح أمراً مباحاً لا حظر فيه ولا وجوب .

والأخرى ــ وهى الثانية ــ فى الترتيب التشريعى والزمنى انتقلت من مجرد الجواز فيه إلى الأمر الوجوبي، ونوجز الحديث أولاً عن المرحلة الأولى .

* مشروعية الإذن فى القتال :

جاء التشريع فى الإذن بالقتال فى قول الحقَ عزَّ وجَلَّ :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ، وَإِنَّ اللّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللّهُ، وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّهِ كَثِيرًا، وَلَيَنصُرَنَّ اللّهُ مَن يَنصُرُهُ، إِنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[١].

هذا أول نص قرآنى تشريعى يأذن الله فيه بالقتال، بعد أربع عشرة سنة ــ تقريباً ــ من

---

(١) الحج : ٣٩ – ٤١

بدء نزول الـوحى على خـاتم المرسـلين ، ومع أن هذه الآية وقـفت عند حـد الإذن، ولم تتجاوزه إلى الوجوب، فقد بيّنت وجه حكمة التشريع فيه :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا .. ﴾ أى أن القـتال المأذون فـيه سـببه الظـلم الواقـع من الذين قـاتلـوا علـى الـذين قوتـلوا ، أى قتـال لردع الظلم ودفع العدوان ، ثم بيّنت الآيتان التاليتان وجوهاً أخرى من وجوه حكمة التشريع فى الإذن بالقتال :

فبالقـتال يدفع الله به ظلم الظالمين ، وتُصان الحرمات ، وتحـمى القيم الدينية ، ولولا إذن الله فـيه لكثـر الفسـاد فى الأرض، ولهـدّمت دور العبـادة على مـدى التاريخ النبـوى كله، ولامتُهنت الحـقوق لدى من لا دين لهم ولا خُلُق. ثم يبين ـــ سبحـانه وتعالى ــ أن القـتال المأذون فيه مقصور على أنصار الحق وحماة الفضيلة ، الذين إن مُكِنَّ لهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكـاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر، أى لا يتـخذون من تمكين الله لهم فى الأرض وسيلة للظلم والفساد، وإنما هم يصرفون قدراتهم التى مَنَّ الله عليهم بها فى نصرة الحق ، وامتثـال أوامر الله واجتناب نواهيه ويسيرون سـيرة حسنة ، لا كمن إذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحَرْث والنَسْل .

* *

* أثر الإذن بالقتال بعد الهجرة :

وقائع السيرة الطاهرة بعد الهجرة فيها آثـار حميدة ترتبت على مشروعية الإذن بالقتال، وهذا ظاهر فى حركة النشاط العسكرى المبكر الذى يتـمثل فى البعوث والسرايا التى أمرها صاحب الدعوة بأن تجوب المناطق الواقعة حول المدينة ، ومعـرفة مداخلها ومخارجها تأميناً لمجتمع المدينة .

* *

* البعوث والسرايا :

هذان مـصطلحـان [illegible] السـيرة ، والمراد منهـمـا واحـد: هو إرسال رسـول الله ﷺ مجموعات صغيرة من أصحابه ، يكلفهم بمهام عسكرية خفيفة هى استطلاع شبكة الطرق

حـول المدينة ، والوقـوف على خطوط سيـرها من وإلى المدينة ثـم الطُرق المؤدية إلى مكة، والتى تصل بينها وبين المدن التـجارية كالشام، ثم التـعرف على القبائل الرابضـة على مقربة من هذه الطرق وعقد معاهدات سلام بينها وبين مجتمع المدينة .

ومن أهداف هذه الطلائع الإعلان عن قـوة المسلمين، واستقلال دولتهـم الناشئة، وأنهم ـ بعـد الهجـرة ـ أصبح لـهم كيـان ورابطة. ومنها تحـصين حـدود المدينة، وهذه البعـوث والسـرايا كـانت تخـرج من المدينة مـسلحـة ومنظمـة تنظمـياً عـسكرياً جـيـداً، ومن تلك الطلائع:

١- سرية سيف البحر :

خرجت فى شهر رمضان سنة ١ من الهجرة، وكان أميرها حمزة بن عبد المطلب ، عقد له لواء الإمارة صاحب الدعـوة ﷺ ، وهو أول لواء عُقِدَ فى الإسلام ، وكان عدد فـرسانها ثلاثين رجلاً كلهم من المهـاجرين . فاعترضت عـيراً لقريش قادمة من الشـام (قافلة تجارية) قوامها ثلاثمـائة رجل منهم أبو جهل. ثم تراصوا للقتال ، ولكن مجـدى بن عمرو الجهني، وكان حليفاً للفريقين، سعى بينهما وحال دون وقوع القتال .

٢- سرية رابـــغ :

وقعت فى شـوال سنة ١ هـ حيث بعث صـاحـب الرسالة بعـثة من سـتين رجلاً ، جـعل عبيدة بن الحارث أميراً عليهم ، فلقـــى أبا سفيان فى مائتـــى رجل ببـــطن الوادى المســـمى « رابغ » وحدث بين الفريقين تراشق بالنبال ولم يقع قتال يذكر .

٣- سرية الخزار :

حدثت فى ذى القعدة سنة ١ هـ وكـان عدد فرسانها عـشرين رجلاً كان أميـرهم سعد ابن أبى وقاص، فتـوجهوا إلى «الخزار» اسم موضع ـ يعـترضون عيراً لقريش فـوجودها قد مرَّت قبل وصولهم إلى الخزار بيوم واحد .

* *

* الغـــزوات :

٤- غزوة الأبواء :

وتسـمى غـزوة : « ودان » كذلك ، وسـميت غزوة لخروج رسـول الله فـيهـا. وهذا مصطلح آخـر فالغـزوة ما خرج فـيها رسـول الله بنفسـه، والسرية أو البعـث ما كان أمـيره صحـابياً ، ولم يخرج معهم صـاحب الرسالة عليه السـلام . خرجت فى صـفر سنة ٢ هـ وعدد رجالهـا سبعون ، واستخلـف النبى على المدينة سعد بن عبادة، وفى هذه الغـزوة عقد معاهدة سلام مع عمرو الضمرى سيد بن ضمرة. جاء فيها :

«هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النـصـر على مـن رامـهم إلا أن يحـاربوا دين الله .. وأن النـبى إذا دعـاهم لنـصـره أجـابـوا »[1] .

وهى أول غزوة خرج فيها النبى ﷺ بنفسه، وتغيب فيها عن المدينة خمس عشرة ليلة.

٥- غزوة بـــواط :

خرجت وفيـها صاحب الرسالة فى شهر ربيع الأول سـنة ٢ هـ، واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، وخرج مـعه مائتان من أصحابه لاعتراض قافلة تجارية لقـريش فيها مائة رجل من قريش منهم أمية بن خلف الجمحى وألفان وخمسمائة بعير، ولكن لم يقع قتال .

٦- غزوة سفـوان :

كانت فى شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ وسببها أن كرز بن جابر الفهرى أغار على مراعى المدينة بقوة من المشركين، ونهب بعضاً من مواشيها فخرج عليه السلام فى سبعين فارساً من أصحابه يطارد كرزاً، وسار خلفه فى طلبه حتى بلغ وادياً يقال له : سفوان، قريباً من بدر، وهذه الغـزوة تسمى بغـزوة بدر الأولى، ولم يقع فيـها قـتال لانفـلات كرز ومن مـعه قـبل الوصول إليهم .

واستخلف النبى فى هذه الغزوة زيد بن حارثة على المدينة .

---

(١) المواهب اللدنية : ١/ ٧٥

٧- غزوة ذى العشيرة :

وصلت الأنباء إلى رسول الله ﷺ بأن عيراً لقريش خرجت إلى الشام فخرج فى الجمادين سنة ٢ هـ ومعه مائة وخمسون رجلاً من المهاجرين كلهم خرج طواعية لاعتراض تلك العير، ولكنها كانت قد سبقت إلى الشام قبل التعرض لها، وقد عقد فيها معاهدات عدم اعتداء مع بنى مدلج وحلفائهم وكان قد استخلف على المدينة أبا سلمى بن عبد الأسد المخزومي. واستغرق غيابه عن المدينة بعضاً من أواخر جمادى الأولى وبعضاً من أوائل جمادى الثانية .

هذه السرايا والغزوات الصغرى وقعت كلها قبل غزوة بدر الكبرى وبعد الإذن بمشروعية القتال. ولم يقع فيها قتال كما تقدم، ولكنها أدت المهام المقصودة منها بإعلان قوة المسلمين واختلاف الوضع عما كان عليه قبل الهجرة.

ومما يؤكد سماحة الإسلام أن بعض السرايا كانت إذا ارتكبت مخالفات كان عليه السلام ينصف من وقع عليه ظلم من جنوده.

ففى سرية نخلة فى رجب سنة ٢ هـ التى كان أميرها عبد الله بن جحش الأسدى وقعت مخالفات لم يأذن بها رسول الله ﷺ إذ كانت المهمة التى كلف الرسول بها هذه السرية مقصورة على تقصى أخبار قريش ولم يأمرهم بقتال، وبخاصة أن السرية كانت فى رجب، وهو من الأشهر الحرم التى حرَّم الله فيها القتال إلا إذا قوتل المسلمون، لكن السرية رأت عيراً لقريش تحمل مواد غذائية فهجموا عليهم وقتلوا منهم واحداً وأسروا اثنين وفرَّ رابع كان فى العير ، ولما قدموا المدينة بالغنائم أنكر عليهم ﷺ ما فعلوا وقال: «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام» ووقف التصرف فى الغنائم .

ثم عاد عليه السلام فأطلق الأسيرين إلى حال سبيلهما، ثم أعطى دية المقتول إلى أولياء دمه[1] .

هكذا تجلت سماحة الإسلام فى التصرف النبيل الذى صدر عن صاحب الرسالة ﷺ .

---

(١) زاد المعاد: ٢/ ٨٣ – ٨٤ وسيرة ابن هشام: ١/ ٥٩ وما بعدها .

فقد أنصف المظلوم دون أن يتقدم إليه المظلوم بطلب الإنصاف، وصحح الأخطاء التى وقع فيها جنوده من تلقاء نفسه .

فأى سماحة هذه ؟ وأى إنصاف هذا الإنصاف ؟ وليس هذا بغريب على من أرسله الله رحمة للعالمين .

* *

* مرحلة الأمر الوجوبى :

فى مرحلة الإذن بالقتال لم يكن القتال واجباً على المسلمين؛ لأن الإذن معناه رفعُ الحظر، ورفع الحظر يترتب عليه الإباحة لا الوجوب، وهكذا استمر الحال قرابة عامين بعد الهجرة .

وفى شهر شعبان سنة ٢ هـ نزل الأمر بالوجوب أى قبيل غزوة بدر الكبرى أولى الغزوات العظيمة فى الإسلام. وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1] .. وبهذا مرَّ شأن القتال فى الإسلام بثلاث مراحل :

الأولى : مرحلة الحظر .

الثانية : مرحلة الإباحة .

الثالثة : مرحلة الوجوب .

ومجيء مرحلة الوجوب عقب مرحلة الإذن، وقبيل غزوة بدر الكبرى تشريع بالغ الحكمة .

ففى مرحلة الإذن انتقال بالنفوس من مرحلة الحظر إلى مرحلة الإباحة ، وهذا الانتقال فيه ترويض للنفوس على الاستعداد للقتال، وتدرج حكيم تأنس به النفوس، وتطمئن القلوب، وتقوى العزائم، لأن الانتقال الطفرى أو المفاجئ ربما أصاب الناس بالقلق والانتكاس، وإنما تكون حكمة السياسة، أو السياسة الحكيمة فى الترفق والتدرج، وهكذا

---

(١) البقرة : ١٩٠

كان هذا التشريع، وهى سمة نهجها القرآن فى الكثير من الأحكام التشريعية، كما فى تحريم الخمور، فقد تدرج القرآن فى تحريمها على أربع مراحل، لما كان لها من رواج فى حياة الناس، ودور ملحوظ فى وسائل الكسب المعيشى ـ أو الاقتصاد القومى بلغة العصر .

لذلك لم يحس المسلمون بأى ضيق لمَّا فُرض عليهم القتال، ولا فوجئوا بأمر لم يتوقعوه، مع أن طبائع البشر تكره القتال، وتميل إلى الراحة والدعة. ومنذ ذلك الوقت صار القتال واجباً على المسلمين إذا دعت إليه ضرورة .

* *

* لماذا شُرِع القتال ؟

لم تكن شريعة الإسلام أوحدية فى مشروعية القتال، فالقرآن الكريم يقص علينا أنَّ كثيراً من الأنبياء مارسوا هذا الفن بإذن الله فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾(١).

والتاريخ النبوى لبنى إسرائيل حافل بالمعارك بين الأنبياء ومعارضيهم، فليس القتال إذاً مسبة ولا نقيصه لا فى الإسلام، ولا فى غير الإسلام من الرسالات السابقة .

ومشروعية القتال فى الإسلام من الضرورات التشريعية التى يلجأ إليها المسلمون حين لا يكون من حيلة إلا القتال، وهو لم يُشْرَع فى الإسلام ليكون وسيلة للبطش والتجبر والقهر، وحباً فى سفك الدماء ونهب الأموال والتشفى الأهوج، بل شرع لردع الظلم، وحماية الحق، ورعاية الفضيلة ولرد العدوان، شرع لإقرار التوازن فى الأرض، وإشاعة السلام والأمن، والقضاء على الطغيان، وفى هذا الإطار كانت معارك المسلمين فى عصر النبوة، وعصر الخلافة الراشدة، ومن سار سيرتهم من ولاة الأمور .

ومن الأهداف العليا فى مشروعية القتال فى الإسلام حماية الدين والعقيدة، ودحر الفتنة، وحماية المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، وكل أولئك مقاصد نبيلة، وقيم إنسانية مقدسة يجب أن تحمى وتصان .

---

(١) آل عمران: ١٤٦

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١) .

﴿ وَمَالَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٢) .

فالقتال فى الإسلام ضرورة وإجراء استثنائى له موجباته ودواعيه ، هو كما قال أمير الشعراء شوقى مخاطباً رسول الله ﷺ :

والحرب فى حقٍ لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء

* *

* ليس للإجبار على اعتناق الإسلام :

ومهما اتفقنا أو اختلفنا حول الأسباب التى أدت إلى مشروعية القتال فى الإسلام : إباحة ووجوباً، فليس من بين تلك الأسباب أن القتال شرع لإجبار الناس على الدخول فى الإسلام، ونتحدى بأعلى صوت من يدعى ذلك من أعداء الإسلام وعملائهم ونقول لهم :

أمامكم الإسلام قرآناً وسنة وإجماعاً وتاريخاً وسيرة، فهيا فأتونا بنص من كتاب الله، أو من أحاديث رسوله، أو من إجماع علمائه، أو واقعة من تاريخه وسيرته تدل على أن من أهداف القتال فى الإسلام جبر الناس على الدخول فيه كراهية وقسراً (٣) .

والإسلام كله معروف كالشمس، فليس فيه جوانب علنية وأخرى سرية فما الذى يعجزهم أن يقوموا بهذه التجربة ؟

---

(١) البقرة : ١٩٣. (٢) النساء : ٧٥ .

(٣) لا يقدح في هذا قوله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» لأن لهذا الحديث معنى خاصاً سنبينه فيما سيأتي . ولا قوله تعالى ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ (الفتح:١٦) لأنه خاص في المرتدين .

وصدق الشاعر الذى قال فى أمثالهم :

يقولون أقوالاً ولا يعلمونها   وإن قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

* *

* وليس عقاباً على الكفر :

وكذلك ليس فى مشروعية القتال فى الإسلام أن يكون عقاباً على كفر من كفر، وإلحاد من ألحد باستثناء حد الردة ــ ولتوضيح هذا نقول : إنَّ الكفر فى تقدير الإسلام نوعان :

الأول : الكفر الذى ولد عليه صاحبه ونشأ عليه، أو الكفر الأصلى إذا صحَّ هذا التعبير، وصاحبه لم يسبق له الدخول فى الإسلام .

الثانى : الكفر الطارئ على صاحبه بعد الدخول فى الإسلام .

فالنوع الأول لا يقاتل عليه صاحبه ولا يُقتل، بل يُكتفى بدعوته إلى الإسلام فإن أسلم فحسن، وإن امتنع ترك وشأنه والله هو يتولى حسابه، فالكافر الأصلى دمه مصون والاعتداء عليه حرام كالاعتداء على ماله وعرضه .

أما النوع الثانى ففيه حد الرِدَّة الوارد فى السنة وعمل الخلفاء الراشدين مع إجماعهم عليه .

ولو كان القتال والقتل عقاباً على الكفر فى النوع الأول لما تهاون فيه صاحب الرسالة، ولا الخلافة الراشدة من بعده، فكم من الاتفاقات ومعاهدات الصلح التى عقدوها مع الناس مع تركهم على عقائدهم دون أن يكرهوهم أو يقاتلوهم على كفرهم، ومن أوضح الأمثلة تصالح عمر بن الخطاب مع نصارى فلسطين، وامتناعه أن يصلى فى الكنيسة حين أذن للصلاة مع دعوة قسيسها أن يصلى فيها، ولكن عمر رضى الله عنه امتنع عن الصلاة فيها قائلاً: لو صليت لجاء المسلمون وقالوا عمر صلى هنا فأخذوا الكنيسة ؟

ثم تصالح عمرو بن العاص مع قبط مصر وتركهم على عقيدتهم دون أى إكراه على تركها والدخول فى الإسلام ، بل إنه ساعد القبط على استقرار شئونهم الدينية باستدعاء

البطريرك بنيامين الـذى كان مختـفياً هرباً من بطش الرومـان، وأعطاه الأمان ليرعى شـئون الأقباط دينياً فى مصر .

بل إن صاحب الدعوة نفسه كان يعقد معاهدات صلح ويترك أهل البلاد على عقائدهم مهمـا كانت مخالفـة للإسلام أصولاً وفروعـاً، ولا ننس المعاهدة التى عقدها مع الـيهود فى المدينة عقب الهجرة مع تركهم على يهوديتهم، أحراراً فى تأدية طقوسهم الدينية على مرأى ومسمع من المسلمين .

* *

* خلاصات موجزة :

مما تقدم تتبين لنا جوانب أخرى من سماحة الإسلام أبرزها جانبان :

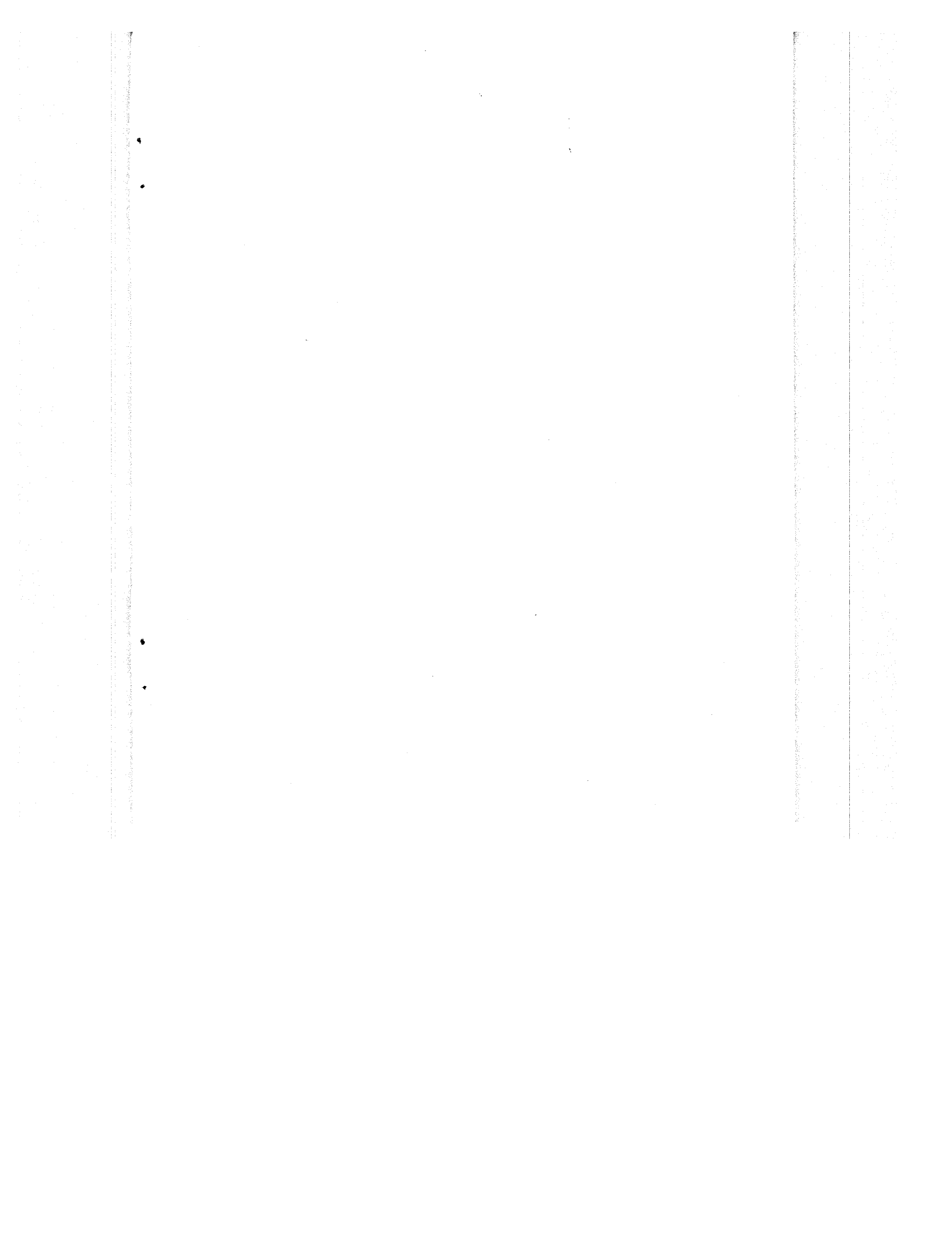
الأول: أن مع مـشروعـيـة القـتال فى الإسـلام لم يكن من أهـدافه حـمل الناس بالقـوة المسلحة على اعـتناق الإسلام؛ لأن فى القرآن العظيم نصاً واضـحاً وصريحاً ومـحكماً يمنع من هذا الهدف، وهو قوله تعالى : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. ﴾[1] .

الثاني: ومع مـشروعية القـتال فى الإسلام فـإنه يخلو ــ منهجاً وسـيرة ــ من أن يكون عقـاباً على الكفر الأصلـى الذى ولد عليه صـاحبه ونشـأ فالكفـر أعظم الذنوب، ومع ذلك فالأمـر فيه موكـول إلى الله سبحانه يعـاقب عليه فى الآخرة بالخلود فى النار، أمـا فى الدنيا فليس لأحد أن يعاقب صاحب الكفر الأصلى بالقتـال عليه أو القتل ودم الكافر كفرًا أصلياً مصـون كمـاله وعِرضه، إلا إذا حـارب المسلمين أو انضم لمن يحاربهم، فـيكون هو الذى أهدر دم نفسه ذلكم هو الإسلام ، وتلك هى سماحته الرحيمة .

* * *

---

(١) البقرة : ٢٥٦



﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ ﴾

(البقرة : ١٩٠)

* * *

الفصل الثاني

ضوابط القتال فى الإسلام

القتال مشروع فى الإسلام .. نعم. ما فى ذلك من ريب. ولكنه قتال محفوف بقيم وضوابط حتى لا يساء استعماله كما يساء استعمال كثير من الواجبات والحقوق .

هذه الضوابط والقيم التى حُفَّ بها القتال، منها ما تولى الله ـ نفسه ـ النص عليها فى كتابه العزيز، ومنها ما وضعه صاحب الرسالة ﷺ وانتهج الخلفاء الراشدون من بعده ما أمر الله به ورسوله .

والآية التى تقدم ذكرها فى الأمر الوجوبى بالقتال وهى قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١).

هذه الآية اشتملت على أربعة ضوابط للقتال المأمور به :

الأول : أن يكون القتال فى سبيل الله أى لنصرة الحق لا فى نزوات شخصية أو عنصرية .

الثاني: أن يكون مقصوراً على مَن قاتلنا فعلاً أو عزم على قتالنا يقيناً أو ظناً قوياً تؤيده قرائن الأحوال الواردة عن العدو .

الثالث: أن لا يكون اعتداءً وتجاوزاً من جانبنا كقتل الشيوخ والنساء والذُرِّية والضعفاء والرهبان المعتزلين فى خلواتهم أو بيوتهم .

الرابع : الترهيب من الاعتداءً بعد النهى عنه، بأن الله لا يحب المعتدين .

وقوله : ﴿ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ أى فى نصرة الحق، سواء أكان هذا الحق لإعلاء كلمة الله بحماية الدين، أو كان للدفاع عن الضعفاء أو لردع الظلم فى أية صورة من صوره، أو لحماية ديار الإسلام أو مقدساته، وقد أفتى الإمام مالك رضى الله عنه بأن من يقاتل دون ماله إذا اعتدى عليه فهو قتال فى سبيل الله .

---

(١) البقرة : ١٩٠.

كل هذه الظروف ــ وأمثالها ــ تجعل القتال مشروعاً على سبيل الوجوب: فاحتلال الأقطار الإسلامية، والاعتداء على حرمات المسلمين كما يقع الآن فى كثير من البلاد الإسلامية، مثل مأساة الشعب المسلم فى البلقان بإخراجه من أرضه، والعبث بحرمات نسائه وفتياته، وهدم دور العبادة واعتداء الهنادك على مقدسات المسلمين فى الهند، كل هذه الظواهر تجعل القتال واجباً على كل قادر من المسلمين، لتُصان الدماء وتحفظ الديار، وتحمى الأعراض. والتقاعس عن القتال فى هذه الأحوال نكسة وقصور من العالم الإسلامى عربيه وغير عربيه .

أما الضوابط فى السنَّة وفى سيرة الخلفاء فقد أشرنا إلى بعضها عند تفسير معنى الاعتداء المنهى عنه فى الآية السابقة ويمكن التعبير عنها بكلمة جامعة وهي: حظر ضرب الأهداف المدنية ــ كما هو معروف فى الفقه الدولى الحديث ــ أى أن الجيش المسلم حين يخوض حرباً واجبة شرعاً، فعليه أن يقتصر فى حربه على قتال من حمل السلاح من العدو وجابهنا به، أو شارك فيه بأى لون من ألوان المشاركة، كالتخطيط، ونقل المؤن والعتاد والجنود إلى ميدان القتال، أو المؤسسات الحربية ومركز القيادات وإصدار الأوامر وتدبير شئون القتال .

أما النساء والأطفال وكبار السن ورجال الدين والرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى أديرتهم ومعابدهم ولم تكن لهم صلة بأمور الحرب الدائرة، وكذلك الزروع والماشية والمؤسسات المدنية كمخازن المياه والتموين الغذائى للمدنيين، والطرق غير الحربية، ومراكز الطاقة الحيوية المتصلة بحياة العامة اليومية، والمدارس والمعاهد والجامعات والمستشفيات المدنية، فهذه كلها لا يتعرض لها بسوء أخذًا بسنة صاحب الرسالة ﷺ وخلفائه الراشدين، والاعتداء عليها داخل فى الاعتداء المنهى عنه فى الآية الحكيمة التى تقدم نصها .

هذا هو ما يرجحه كثير من الفقهاء، ولكنه مشروط بشرط عادل ومهم وهو: أن لايعتدى علينا العدو بضرب هذه الأهداف لدينا، فإذا اعتدى العدو علينا بضرب الأهداف المدنية جاز لنا ضرب ما تصل إليه أيدينا من منشآته المدنية، معاملة بالمثل، لقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[1] .

* *

(١) البقرة : ١٩٤

* أنـــواع الضوابط :

وضوابط القتال التى أوجزنا الحديث عنها تتنوع ثلاثة أنواع :

الأول – ضوابط قبل بدء القتال :

ومنها : أن لا نقـاتل العدو إلا إذا سُدَّت كل الطرق أمـام التوصل إلى عقـد اتفاق سلمى حول النزاع الناشب بيننا وبينه .

ومنهـا ألاَّ نبـدأهم بالقـتـال حـتى يبـدأونا هم به مع أخـذ الحـذر الدقـيق منهم، وترقب حركاتهم حتى لا نؤخذ على غِرَّة . ويجوز مبادأتهم بالقتال فى حالات الضرورة .

ومنهـا: أنه إذا كان بيننا وبين العـدو عهـد بعدم الاعـتداء، وبدرت منه بوادر قـوية على خيانة العهد وجب علينا أن نعلمه بنقض العهد من جانبنا قبل أن نقاتله، عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيهِمْ عَلَى سَوَآءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لاَيُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (١)

*

الثاني ــ ضوابط فى أثناء القتال :

وهى كل ما تقدم فى تفسير الاعتداء المنهى عنه، ونضيف إليها هنا أمرين :

الأول: عدم المُثْلة بقتلى الأعـداء كتقطيع أطرافهم وتعليقهم علـى حوامل أو أعمدة، أو بقر بطونهم أو تلـطيخ وجوهم بمواد مشـوهة، فقد ثبت النهى عن المثلة؛ لأنهـا عمل حقـير ولاتليق بكرامة الإنسان مسلماً كان أو غير مسلم .

الثانى : الاسـتجابة إلى كف القتـال إذا طلب العدو ذلك شريطة ألا يكون مخـادعاً لنا فى التـقدم بهـذا الطلب، وذلك عمـلاً بقوله تعـالى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) .

*

---

(١) الأنفال : ٥٨

(٢) الأنفال : ٦١

الثالث – ضوابط ما بعد القتال:

وضوابط ما بعد القتال ضربان :

الأول : سلوكيات تتعلق بآثار القتال وما نتج عنه، وأبرز هذا الضرب التصرف فى الأسرى إن وجدوا، وكان المصير فيهم فى أول الأمر أن يقتلوا، كما جاء التوجيه فى غزوة بدر الكبرى بعد أن تصرف النبى فى أسرى قريش نازلاً على رأى أبى بكر، فأطلق سراحهم بعد أخذ الفدية منهم، فنزل الوحى معاتباً : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) .

ثم عافيا : ﴿ لَوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا، وَاتَّقُواْ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢) .

ثم جاء التخيير بين المَنَّ على الأسرى ـ إطلاق سراحهم مجاناً ـ وبين أخذ الفدية منهم، والأمر يرجع إلى تقدير إمام المسلمين أين يرى المصلحة فى المَنَّ أم فى أخذ الفدية كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً .. ﴾(٣) .

وقد توسع الفقهاء فى وجوه التصرف فى الأسرى، فزاد بعضهم على ما ورد فى الآية وجهين أو ثلاثة، منها جواز القتل والاسترقاق، والمعول عليه ما ورد فى القرآن نفسه، لأنه قطعى الثبوت والدلالة معاً. وعلى كل فإن معاملة الأسرى ـ وهم فى الأسر ـ يجب أن تكون بالحسنى .

الضرب الثاني: سلوكيات تختص بواقع المسلمين بعد القتال مع إحراز النصر : وهى الالتزام الكامل بمنهج الله من التواضع وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونصر الله واتباع هديه فى كل شئون الحياة الخاصة والعامة : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾(٤) .

(١) الأنفال : ٦٧ – ٦٩
(٢) محمد : ٤
(٣) الأنفال : ٦٨ – ٦٩
(٤) الحج : ٤١

إن النصـر والتـمكين فى الأرض مـن أجل النعم على المسلمـين بعـد الإيمان بالله. وشكر هذه النعم يكون بطاعة الله ورسـوله لا بالسعى فى الأرض فساداً، والطغيـان على عباد الله، هكذا وجه القرآن المسلمين .

وفى هذا الإطار المحكم من التوجيه الإسلامي الخُلُقى جرت معارك المسلمين مع أعدائهم فى صدر الإسلام، ويمكن تقسيم تلك المعارك والغزوات قسمين :

* غـزوات كـان سـببهـا الدفـاع عن حـرمـات الله وحـقـوق المسلمين كـغـزوتى أحُد والأحـزاب، ومن قبلهـما غـزوة بدر الكبـرى، إذ كان الهـدف لقـريش وحلفائهـا من هذه الغـزوات هو مـداهـمـة المسـلمين فى مـقـرهم الجـديد (المـدينة) والقـضـاء عليـهم وعلى الإسلام معاً.

* وغزوات كان سببها تبليغ الدعوة كغزوات الفرس والروم والمناطق الخاضعة لهما.

وفى هذه الغزوات كان القتال هو اختيـار العدو لا المسلمين، كما هو معروف من منهج الدعوة :

* عرض الإسلام أولاً .

* فإن أَبَوْا خُيِّروا بين دفع الجزية وبمقتضاها يُعقَد معـهم عهد أمان يصبحون فى ظله لهم مـا للمـسلمين مع حـمـاية المسلمين لـهم والدفـاع عنهم ضـد أى خطر، فـإن أَبَوْا أعلمـهم المسلمون أنه لم يبـق إلا القتال، ولم يحـدث فى الصدر الأول للإسلام أن فـرض المسلمون القتال على قوم اختاروا الصلح مع المسلمين، مع بقائهم على عقائدهم الدينية، فالقتال الذى وقع بين الفرس والروم وبين المسلمين كان اختيار الفرس والروم وليس اختيار المسلمين .

ولما وقع اختـلاف فى منهج الدعوة فى فتح سمـرقند، حيث لم يخيـر القائد المسلم أهل سمرقند بين الصلح ـ بشرطه ـ وبين القتـال، ودهم ديارهم تقدم أهل سمرقند إلى عمر بن عبد العزيز بشكوى مما حـدث لهم من الفاتحين المسلمين. فأمر عمر بن عـبد العزيز بتنصيب قاضى «طوارئ» من المسلمين لينظر فى شكوى القوم، فقضى بما يأتى :

أولاً : خروج المسلمين من سمرقند .

ثانياً : دفع تعويضات من خزانة الدولة الإسلامية لأهل سمرقند مقابل ما نزل بهم من أضرار من جراء دخول المسلمين بلادهم دخولاً مخالفاً لمنهج الدعوة .

ثالثاً : ثم تعاد دعوتهم إلى الإسلام فإن أَبَوْا خيّروا بين الصلح وبين القتال .

ولكن أهل سمرقند تنازلوا عن شكواهم بعد ما لمسوا من الروح الطيبة والخُلُق الكريم، والسلوك الجميل من المسلمين الفاتحين .

أما إجلاء اليهود عن المدينة فكان رداً على مؤامراتهم ودسائسهم ضد الإسلام والمسلمين، وضد صاحب الرسالة ﷺ بعد أن عاشوا فترة فى ظل المعاهدات التى عقدها معهم النبى يتمتعون بكل حقوقهم وحرياتهم الدينية والاقتصادية والاجتماعية. فلما نقضوا تلك المعاهدات وظاهروا أعداء الإسلام، وتآمروا على قتل صاحب الدعوة كان لا مناص من مطاردتهم وإخراجهم من المدينة تأميناً لسلامة الجبهة الداخلية، واستبعاداً لخطرهم الذى بات ظاهراً لا خفاء فيه. وحين أجلاهم المسلمون عن المدينة كانوا ينفذون حُكماً لله فيهم أفصح عنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ أن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا، وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّواْ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَمَن يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1] .

ومن روائع الوقائع التى تعزى إلى الإسلام أن أبا عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة صالح قوماً على دفع الجزية، وتعهد بحمايتهم من أى خطر خارجى ولما أحس أنه غير قادر على حمايتهم رد إليهم ما أخذ منهم وفاءً بالعهد، واعداً لهم أن يعود لما تعهد به إذا أحس من نفسه القدرة على حمايتهم .

* *

* خلاصات موجزة :

عرضنا فيما تقدم لضوابط القتال فى الإسلام، وبدا لنا أن فى كل ضابط منها ـ قولاً وعملاً ـ دليلاً ناصعاً على سماحة الإسلام ورحمته بالناس وإن كانوا كفاراً .

---

(١) الحشر : ٣ - ٤

فهـو ـ من جـهة ـ أول من سن حـماية الأهداف المدنيـة فى أثناء القتـال الواجب. ثم اهتدت به النظم الدولية الحديثة، وجعلته هيئة الأمم مبدءاً من أبرز مبادئها القانونية. مع فارق كبير بين سماحة الإسلام وبين الواقع الدولى المعاصر .

فالإسلام قـرره مبدأً، وطبقه عـملاً، وأما الواقع الدولى المعاصـر فقد أقر به مبـدأ قانونياً، وخالفه فى الممـارسات العملية، وخذ إليك أحـدث واقعتين حديثتين: إحداهمـا ما قامت به أمريكا فى حـرب الخليج الأخيرة ضـد الشـعب العـراقى المسلم، حيـث ضـربت الفنادق والمستشفيات المدنية، ودمرت الطرق المدنية ومستودعات الغذاء الشعبي، ودمرت محطات الوقود المدنى والمولدات الكهربائية وخزانات المياة .. إلخ .

أما الواقعة الثانية فاعتداءات الصرب على المسـاجد وانتهاك حرمات الفتيات والسيدات ومنع وصول المواد الغـذائية إلى معسكرات اللاجـئين وفيهم كبار السن الفـانون من الرجال والنساء، وصـغار السن من الأطفال الرُضَّع وغـير الرضع، ولك أن تقـارن بين النماذج التى تفيض سماحة ورأفة التى مصدرها الإسلام وبين هذه النماذج الوحشية التى يمارسها الغرب الصليبي، وتساندهم فيـها بقايا الشيوعية الحاقدة. ومع هذا يحلو لـلغرب ـ ساسة ومفكرين ـ أن يصفـوا الإسلام بالإرهاب وسفك الدمـاء وقتل الحريات. ولـن نملك إلا أن نقول لهم كما قال الصادق المصدوق ﷺ : «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» ؟ [١] .

ثم هل يملك نظام من النظم القـديمة أو الحديثة، أو تاريخ من التـواريخ واقعة كلهـا عدل وسماحة كـالتى أشرنا إليها من قبل من إنصاف الخليـفة عمر بن عبد العـزيز وقاضيه المسلم لأهل سمرقند؟

أو يملك نظام ما من النظم مـثل سماحة الإسـلام التى عبَّر عنها أبو عبـيدة حين رد لأهل الصلح كل ما أخذه منهم مـقابل حمايتهم من الأخطار حين أحس بعجـزه عن حمايتهم ؟! وما أصدق قول الشاعر :

حَسَدَاً بَلَّغْتَـهُ فـى حقـها وقديمًا كان فى الناس حسد

* * *

---

(١) صحيح الإمام البخاري : باب الأنبياء .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾

(البقرة : ٢٠٨)

*   *   *

الفصل الثالث

علاقة المسلمين بغيرهم .. سلام أم حرب

هذا التساؤل قديم، وليس حديثاً، فقد تطرق الفقه الإسلامى الاجتهادى إلى هذه المسألة البالغة الحيوية. وسألوا هذا السؤال، ثم اجتهدوا فى الإجابة عليه، وكان لهم منه موقفان مختلفان، وقصدنا ــ هنا ــ إيجاز ما قيل؛ لأن المسألة لها صلة وثيقة بسماحة الإسلام فى أحد شقيها كما سنرى قريباً بإذن الله .

* مذهبان مشهوران :

أسفر اختلاف الفقهاء حول الإجابة على هذا السؤال الحيوى عن مذهبين لهم فى هذا المجال:

* حــــربٌ لاسلام :

هذا أحد المذهبين فى المسألة، خلاصته أن علاقة المسلمين بغيرهم ــ يعنى الدولة أو الدول الإسلامية ــ علاقة حرب لا علاقة سلام، علاقة خصام لا علاقة وئام، والقائلون بهذا القول تلمسوا له أدلة من القرآن والسنة معاً ، فما هى أدلتهم يا ترى ؟

*

* أدلة القائلين بالعلاقة الحربية :

للقائلين بأن علاقة المسلمين بغيرهم من أهل الملل الأخرى هى الحرب لاالسلام، أدلة متعددة، نكتفى بذكر بعضها توخياً للإيجاز مع الإشارة إلى أنَّ ما لم نذكره ليس فيه جديد يضاف إلى ما سنذكره، فكل أدلتهم مع الاختلاف اليسير فيما بينها تدور حول معنى واحد، وكلها يجزئ بعضها عن بعض. وهذه الأدلة نوعان :

الأول : آيات أو بعض آيات من القرآن الكريم .

الثـانى : بعض أقـوال من السنة النبـوية ، ونعرض لهـذه الأدلة على التـرتيب المذكور..

* الأدلة القرآنية :

منـهـا قـــوله تعـــالى : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾[1] .

ومنهـــا : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَيُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَيَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[2] .

ومنهـــا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً، وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[3] .

ومنها: ﴿ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾[4] .

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[5] .

*

* الأدلة النبوية :

إنّ أقوى مـا يسـتدل به أصـحاب هذا المذهب القـاضى بالعلاقـة الحربيـة بين المسلمين وغيرهـــم ، إنّ أقوى ما يـستدلون به من السُنَّة النبــوية هو قوله ﷺ : « أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يقولوا لاإله إلا الله ..»[6] .

ونكتفى الآن بذكر هذه الأدلة. ثم نعود لمناقشتـها واحداً واحداً بعد ذكر أدلة

---

(١) التوبة: ٥ (٢) التوبة : ٢٩ (٣) التوبة : ١٢٣
(٤) التوبة : ٣٦ (٥) التوبة : ٧٣ (٦) متفق عليه

القـائلين بأن العلاقـة بين المسلمين وغـيرهم عـلاقة سـلام فى الأصل ، لا علاقـة حـرب .

* *

* أدلة القائلين بالعلاقة السلمية :

للقائلين بالعـلاقة السلمية بين المسلمين وغـيرهم أدلة كثيـرة من القرآن الكريم والسنة العملية، والأدلة القرآنية بعضهـا يدعو إلى العفو والصفح العام عن المخالفين للإسلام، أيًّا كانت عـقائدهم التى يؤمنون بها. وبعضها ذو دلالة واضحة وقوية على أن المخالفين للإسـلام لا يجب قتالهم إلا فى حالات استـثنائية من أبرزها إذا قاتلوا هم المسلمين، أو ظاهروا من يقاتل المسلمين، أو كانت بينهم وبين المسلمين عقود سلام وأمان فنقـضوها ونكثوها، أو طعنوا فى الدين وأظهروا ذلك الطعن، أو أرادوا إخراج المسلمين من ديارهم .

وبعـضـهـا يوصـى المسلمين بحسن الجـوار والإحـسـان إلـى المخـالفين الذين لايؤذون المسلمين بقـول - طعن ظاهر فى الدين - أو عـمل يُلْحِق بالمسلمين أذىً غير معهود .

فهذه ثلاثة أنواع من الأدلة القرآنية على علاقة السلام بين المسلمين وغيرهم. ونمثل لها فيما يأتى حسب الترتيب المذكور .

*

* أدلة العفو والصفح العام :

* ﴿ وَدَّ كَثِيـرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

---

(١) البقرة : ١٠٩

* ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا، وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[1].

* ﴿ وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

* ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3].

* ﴿ .. وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾[4].

جميع هذه الآيات تدعونا إلى الصفح والعفو، أو الصبر على أذى أعداء الإسلام. أو الإعراض عنهم على ما هم عليه من إشراك وصدود.

*

* الأدلة المؤذنة بالقتال في الظروف الاستثنائية :

إذا قلنا إن الأصل عدم قتال المشركين إلا لموجب يقتضي ذلك فإن في مقدمة الأدلة على الأمر بوجوب قتالهم قوله تعالى:

* ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[5].

* ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[6].

---

(١) آل عمران : ١٨٦ (٢) الزخرف : ٨٨ – ٨٩ (٣) الجاثية : ١٤

(٤) الحجر : ٨٥ (٥) البقرة : ١٩٠ (٦) النساء : ٧٥

* ﴿ .. فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّواْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ .. ﴾[1] .

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾[2].

* ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾[3] .

وفى هذه الآية حث على احترام مواثيق السلام بين المسلمين وغيرهم .

* ﴿ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ * أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[4] .

* ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[5] .

*

* الأدلة الداعية إلى الإحسان :

أما ما ورد فى القرآن الكريم من آيات تدعو المسلمين إلى الإحسان إلى غير المسلمين، فمنها قوله تعالى مخاطباً خاتم المرسلين ﷺ : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ.. ﴾[6] .

أى إذا رفض الإسلام بعد سماعه كلام الله يُخَلَّى سبيله حتى يبلغ مكاناً يأمن فيه على نفسه دون أن يتعرض له أحد من المسلمين بأذىً ؟

* ومنها قوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ

---

(١) النساء : ٩١ (٢) الأنفال : ١٥ (٣) الأنفال : ٧٢
(٤) التوبة : ١٢-١٣ (٥) الممتحنة : ٩ (٦) التوبة : ٦

يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1] .

*

* الأدلة من السُّنَّة :

في السُّنَّة العملية أدلة قاطعة على سلمية العلاقة بين المسلمين وغيرهم. وقد تقدم شأن المعاهدات التي عقدها النبي ﷺ مع اليهود وكل طوائفهم عقب الهجرة مباشرة، وفي أواخر حياته ﷺ في غزوة تبوك عقد معاهدات صلح مع كل من صاحب أيلة يحنة بن روبة، وأهل جرباء وأهل أذرح، وأكيدر دومة الجندل مع أنه كان وثنياً يعبد البقر، ومع نصارى نجران، كل هؤلاء وغيرهم عقد معهم معاهدات صلح مع إقرارهم على عقائدهم، وكان المسلمون أوفى الأطراف بالعهود والعقود، لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ..﴾[2] .

ومعنى كل ما تقدم أن الكفر ليس سبباً في قتال المسلمين لأعدائهم بل لابد من انضمام سبب آخر يوجبه غير الكفر. فقتال المسلمين لليهود لم يكن سببه البقاء على اليهودية، بل لأن اليهود نقضوا عهودهم مع المسلمين وتآمروا على الإسلام، وحاولوا قتل صاحب الرسالة عن طريق السم مرة، وطريق الغدر الآثم مرة أخرى، وظاهروا أعداء الإسلام من المشركين والمنافقين على الاعتداء على المسلمين .

وحروب المسلمين مع نصارى العرب والروم لم يكن سببه هو النصرانية ولكن الروم عزموا عزماً قوياً على مداهمة المدينة عاصمة الإسلام في ذلك الوقت، وتأكد المسلمون بقيادة صاحب الدعوة من هذه المؤامرة فخرج إليهم ﷺ في جيش العُسْرة في غزوة تبوك قبل أن ينفذوا مخططهم الذي أبرموه في الخفاء.

(١) الممتحنة : ٨ (٢) المائدة : ١

وهكذا كان لكل قتال وقع بين المسلمين وغيرهم فى عصر النبوة الذى قصرنا هذه الدراسة عليه، بسبب غير الكفر أيًا كان نوعه. وفى هذا كله أقطع الأدلة على أن الأصل فى علاقة المسلمين بغيرهم هى السلام لا الحرب. وأن قتال المسلمين لغيرهم كان سببه «المحاربة» من غير المسلمين للمسلمين، وليس سببه الكفر المجرد كما يذهب من قال إن العلاقة بين المسلمين وغيرهم هى علاقة الحرب لا علاقة السلام .

* *

* موازنة بين أدلة الفريقين :

ذكرنا فيما تقدم أقوى أدلة الفريقين: القائلين بأن علاقة المسلمين بغيرهم علاقة حرب دائماً وفى كل حال: قاتلونا أو لم يقاتلونا، وفَوْا بعهودنا أو لم يفوا؛ لأن سبب قتال المسلمين لغير المسلمين هو الكفر فكيفما وجد الكفر وجب القتال . سواء انضم إليه سبب آخر كنقض عهد أو اعتداء أو لم ينضم، فعلة الحكم عندهم هى الكفر ؟!

وأدلة القائلين بأن علاقة المسلمين بغيرهم الأصل فيها: أنها علاقة سلام إلا إذا دعا داع لقتالهم، كأن يقاتلونا مثلاً. وعِلَّة الحكم عند هذا الفريق من العلماء هي: المحاربة. فمن حاربنا حاربناه، ومَن لم يحاربنا فما جعل الله لنا عليهم سلطاناً .

ذكرنا أدلة هؤلاء وهؤلاء، أو ذكرنا أقواها، ونريد الآن أن نقوم بموازنة بين أدلة الفريقين، موازنة نصل منها إلى حقيقة العلاقة بين المسلمين وغيرهم :

أهى علاقة حرب وخصام دائماً ؟ أم هى فى الأصل علاقة سلام ؟ ولنبدأ بالنظر فى أدلة الفريق الأول . .

* مناقشة أدلة الفريق الأول :

كان أول دليل من القرآن ذكرناه للفريق الأول هو قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ

الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ.. ﴾ (١) .

هذه الآية كانت ضمن توجيهات من الله لرسوله وللمسلمين تجاه حالات خاصة بين المسلمين والمشركين، فقد عاهد النبى وأصحابه مشركى العرب بإذن الله، فنكث المشركون ما عاهدوا عليه صاحب الرسالة وأصحابه إلا بنى ضمرة، فقد حافظوا على العهد، فأمر الله رسوله أن يمهل مَن نكث عهده من المشركين أربعة أشهر، هى الأشهر الحرم، فلا يقاتلهم خلالها. ثم إذا انقضت الأشهر الأربعة قاتلهم إلا بنى ضمرة، ثم عاد فاستثنى بنى ضمرة من نقض العهود مرة أخرى حيث قال: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) أى لا تقاتلوهم ــ يعنى بنى ضمرة ــ ما داموا موفين بعهدهم لكم ، فالاستثناء كما ترى متصل: أى استثنى مشركين من مشركين أعم منهم فدل ذلك على أمرين :

الأول : أن قتال رسول الله والمسلمين للمشركين كان سببه نقض العهود وليس الشرك .

الثانى : أن الإعراض عن بنى ضمرة وترك قتالهم كان سببه وفاءهم بعهدهم للمسلمين على رغم أنهم مشركون .

والدليل على أنَّ الأمر بالقتال كان خاصاً بمشركى العرب فى قوله : ﴿ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ قوله تعالى بعد ذلك بآيات : ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ..﴾(٣) فالَهمّ بإخراج الرسول ليس عاماً من كل المشركين فى كل زمان ومكان، بل خاص بمشركى العرب فى مكة قبل الفتح .

---

(١) التوبة : ٥ (٢) التوبة : ٧ (٣) التوبة : ١٣

ويضاف إلى هذا أن صاحب الرسالة عام فتح مكة عفا عن هؤلاء المشركين جميعاً بعد كل الذى فعلوه معه ومع أصحابه وقال لهم فى عفوه العام عنهم : «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فكانت هذه السماحة الإسلامية سبباً فى إسلام المشركين العرب جميعاً إلا من مات منهم على الكفر قبل هذا العفو الكريم .

* الخلاصة : ويعلم مما تقدم أن هذه الآية ليس فيها دليل للقائلين بأن علاقة المسلمين بغيرهم علاقة حرب لا علاقة سلام: لا جزماً ولا احتمالاً .

* *

* الدليل الثانى :

وكان مما استدل به الفريق الأول من القرآن هو قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[1].

هذه الآية الكريمة وما بعدها نزلت فى شأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وفيها أمر بقتالهم بعد أن فرغت الآيات التى قبلها من تفصيل بعض الأحكام فى شأن مشركى العرب. وجاء الأمر بقتال أهل الكتاب لأن اليهود ارتكبوا جرائم فظيعة، فى حق الإسلام والمسلمين، ولأن الروم - وهم نصارى - بيتوا النية على غزو المدينة ومحاربة الدعوة، لا لأنهم يهود ونصارى وكفى. والصفات المذكورة من عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، وعدم تحريم ما حرَّم الله ورسوله، وعدم العمل بالدين الحق صفات كاشفة عن حقيقة العدو وليست منشئة للحكم بقتالهم . وقد فصَّل القول فى هذه المرحوم محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق فى رسالته القيمة: « القتال فى القرآن» . والواقع العملى لسنة رسول الله يؤيد ذلك، فقد سبق أنه ﷺ عاهد اليهود من قبل وأقرهم على عقائدهم، وعاهد نصارى نجران، بل وعاهد أهل دومة الجندل وهم وثنيون

---

(١) التوبة : ٢٩

يعبـدون البقـر. إذاً فليس الكفر الذى ذكـرت الآية بعض صوره هو السـبب فى الأمر بالقتال، وإلا لما عقد النبى صلحاً من قبل مع يهود أو نصارى أو وثنيين، ولما وقف منهم إلا موقف القتال؛ لأن ظاهر الآية تقضى به .

بل إن فى هذه الآية نفسـها دليلاً أقوى مـا يكون الدليل على ذلك. إذ جعلت الآية قبول دفع الجـزية منهياً للقتال المأمور بـه فى صدرها. والجزية ــ هنا ــ ليس معناها بذل مقدار من المال، بل معناها مـع هذا حصول اتفاق بينهم وبين المقاتلين يلتـزمـون فيـه بالكف عن جـرائمـهم ضـد الإسـلام والمسلمين . ﴿ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُون ﴾ ولو كـان القتـال قـد وجـب بسـبب كـفـرهم لوجب استمراره حتى يسلموا أو يبيدوا عن آخرهم. ولم يقل بذلك أحد، ولاهو معنى من معانى الآية الكريمة؛ لاشتمالها على القيد المنهى للقتال .

* الخلاصـة : ليس فى هذه الآية دليل قط عـلى وجوب قـتال غـيـر المسلمين بسبب الكفر المجـرد، كما ذهب الفريق القائل بأن العلاقـة بين المسلمين وغيرهم: علاقة حرب لا علاقة سلام .

* *

* الدليل الثالث : أما الدليـــل الثالث فكان : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ .. ﴾ [1] .

هذه الآية من العام الذى أريد به الخاص، لأن ظاهر معناها أن يقاتل المسلمون فى كل زمـان ومكان مَن يجـاورهم من الكافـرين في كل زمـان ومكان. وليس هذا هو المراد كـمـا ذهب عـامـة المفسـرين . والصـواب أن فى الآية توجـيـهـاً للمسلمـين فى عصر النزول بعـد أن تقرر قتـال أعداء الإسـلام من الفرس والروم وغيرهم. والفرس كانوا بالعـراق، والروم كانوا بالشام فى ذلك الوقت. فأمر الله المسلمين أن يبدأوا بقـتال الروم لأنهم أكثـر دنّواً للمدينة من الفُرس. ويرى بعض

---

(١) التوبة : ١٢٣

المفسرين أن اليهود كانوا أقرب مَن الروم والفُرس لدنوهم من المدينة. فمعنى الآية إذاً هو توجيه للمسلمين إلى الأصوب فى خطة حرب متوقعة. فالبدء بالأقرب أحوط لما فيه من حماية ظهور المقاتلين وتأمين استراتيجيتهم الحربية، إذ لو بدأوا بالفُرس لانتهز الروم إما غزو المدينة، وإما الالتفاف على الجيش المسلم من الخلف، وقد جاء العمل العسكرى الإسلامى تطبيقاً لهذا التوجيه الحكيم ، حيث بدأ بنصارى العرب الخاضعين للروم قبل الروم أنفسهم وقبل الفُرس .

* الخلاصة : أن هذه الآية كسابقتيها ليس فيها دليل لمن قال إن علاقة المسلمين بغيرهم علاقة حرب لا علاقة سلام. وإلا لكان واجباً على مسلمى كل عصر وكل مكان أن يقاتلوا من يجاورهم من غير المسلمين. وهذا لم يقل به أحد سوى هذا الفريق الذين نناقش أدلتهم هنا. بل إن القرآن نفسه صريح فى الدعوة إلى علاقة حسن الجوار لمن لا يتعرض لنا بأذىً من غير المسلمين، وقد تقدم هذا فى قوله فى سورة الممتحنة: ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَنَ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ ... ﴾ [1] .

* *

* الدليل الرابع :

أما دليلهم الرابع فكان : ﴿ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[2] .

وَرَدُّ الاستدلال بهذه الآية عليهم يسير؛ لأن القتال الذى أمر الله به المسلمين فى هذه الآية قتال لرد العدوان القائم من المشركين على المسلمين. ومعنى «كما» فيها هو «التعليل» باتفاق بين عامة أهل اللغة والبلاغة والمفسرين :

أى قاتلوهم جميعاً؛ لأنهم يقاتلونكم جميعاً. ولا خلاف بين العلماء سلفاً

(١) الممتحنة : ٨ (٢) التوبة : ٣٦

وخر ، أن قتال من يعتدى علينا واجب. فليس المراد من الأمر بالقتال فيها مطلقاً من كل قيد. بل هو نظير قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[1] أى : قتالاً لدفع قتال واقع علينا من العدو .

* الخلاصة : ليس فى هذه الآية أى دليل للقائلين بالعلاقة الحربية الدائمة بين المسلمين وغيرهم من أهل العقائد الأخرى. فهى فى وادٍ، وهم فى واد آخر .

* *

* الدليل القرآنى الخامس :

وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ..﴾[2].

هذه الآية الكريمة هى أقوى أدلتهم، فهى من سورة التوبة، التى نزلت فى العهد المدنى بعد البقرة وآل عمران والنساء، وقد تكرر نزول الآية مرة ثانية فى سورة التحريم المدنية، آية رقم (٩). ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية نسخت كل آيات العفو والصفح والصلح ؟![3] .

والقول بالنسخ المذكور غير مُسلَّم؛ لأن نزول هذه الآية كان قبل غزوة تبوك، وقد تقدم أن النبى ﷺ عقد عدة معاهدات صلح فى أثناء قيامه بغزوة تبوك، فلو كانت هذه الآية ناسخة لآيات العفو والصلح والصفح لما عقد النبى شيئاً من ذلك .

وخلفاؤه الراشدون عقدوا مصالحات كذلك من بعده، وما كانوا يفرضون الإسلام أو القتال إذا استجاب العدو للصلح وفهم صاحب الرسالة لمعانى النصوص القرآنية، وكذلك أصحابه رضوان الله عليهم أصوب وأدق من فهم من جاء بعدهم. فكيف يقال إن هذه الآية نسخت كل آيات الصفح والعفو والصلح، ولو كان هذا النسخ مُسَلَّماً لورد الخبر به عن السلف، ولكنه اجتهاد

---

(١) البقرة : ١٩٠ (٢) التوبة : ٧٣ (٣) انظر فتح القدير للشوكاني : ٢/٢٥٢

قد عورض بمثله ـ كما سيأتى ـ والأوْلى أن نحمل هذه الآية ـ وهى مطلقة ـ على النصوص القرآنية المتعددة التى شرعت القتال من أجل قتال غيرنا لنا، وحمل المطلق على المقيَّد أصل من أصول الفقه كما نعلم، وكثيراً ما عولجت به ظاهرة النصوص المتعارضة من حيث الظاهر، وكان مسلكاً محموداً للتوفيق بين النصوص الذى هو أولى من إعمال نص وتعطيل آخر .

* والخلاصة : أن هذه الآية ليس فيها دليل قطعى الدلالة على سلامة مذهب القائلين بأن العلاقة بين المسلمين وغيرهم، هى ـ دائماً ـ علاقة حرب لا سلام .

* *

* الدليل النبوى :

أما الحديث الذى استدلوا به علي أن غير المسلمين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو الحرب، وهو قوله ﷺ : « أُمِرْتُ أن أُقَاتِلَ النَّاسِ حتى يَقولوا: لا إلهَ إلاَّ الله.. ».

وهو حديث متفق عليه كما تقدم. فهذا الحديث ـ مع صحته ـ ليس فيه دليل للقائلين بأن علاقة المسلمين بغيرهم هى الحرب لا السلام. لأنه ـ كما نص كثير من العلماء ـ خاص بمشركى العرب دون غيرهم من الناس. وهذا مذهب جمهور العلماء، وحكى بعضهم عن الإمام مالك أنه عام فى كل الكفار. وسبب الاختلاف نشأ حول الجزية هل تؤخذ من أهل الكتاب وحدهم؟ هذا هو صريح ما ورد فى القرآن الكريم فى آية التوبة : ﴿ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[1] وألحقت السنة بهم المجوس [2] حيث ورد فى شأنهم: «سنوا فيهم سُنَّة أهل الكتاب» يعني: أن قتال أهل الكتاب والمجوس ينتهى إذا صالحوا على الجزية. أما غيرهم فلا يقبل منهم إلا الإسلام، فإن أبوا استمر

---

(١) التوبة : ٢٩ .

(٢) المجوس هم: أتباع زرادشت. قوم من الفرس ثنوية يؤمنون بوجود إلهين : هرمز، وأهرمن ...

قتالهم حتى يسلموا أو يفنوا، وعبارة العموم المنسوبة إلى مالك حكاها الإمام الشوكانى فى فتح القدير بقوله: «وقال الأوزاعى ومالك: إن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الكفرة كائناً من كان»[1] .

بَيْدَ أن غيره ذكرها على غير هذا الوجه فقال: وعند مالك تؤخذ من نصارى العرب، وهذا القول هو الصواب والموافق للسنة العملية؛ لأن نصارى العرب أهل كتاب، والقرآن نص على أخذها من أهل الكتاب مع جواز إبقائهم على عقائدهم. وهذا ما حدث فى السُنَّة العملية حيث صالح ﷺ نصارى نجران، وهم عرب على الجزية .

وبهذا يكون حديث: «أُمِرْتُ أن أُقَاتِلَ النَّاس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» خاصًا بمشركى العرب. وليس عاماً فى جميع الناس وإنما خُصَّ مشركو العرب بهذا التضييق؛ لأن القرآن بلغة العرب نزل، وعلى رجل منهم يعرفون فضله وشرفه منذ الطفولة، فلا عذر لهم فى رفض الإسلام، ولا شبهة تحول بينهم وبينه. بدليل أن قريشاً سارعت إلى الإسلام عام الفتح عن بكرة أبيها، لما رأت دلائل الحق فيه أظهر من الشمس، إذن فمن بقى منهم على شركه بعد هذا الوضوح فليس له إلا السيف لأنه معاند مكابر .

* الخلاصة : أن هذا الحديث ـ مع صحته والاتفاق عليه ـ ليس فيه متمسك للقائلين بأن علاقة المسلمين بغيرهم علاقة حرب لا علاقة سلام .

وما من دليل لهم ذكروه على صحة مذهبهم بمنأى عن المناقشة الكاشفة بتوهين الاستدلال به. فهذا المذهب إن لم يكن أو إن لم نقل إنه ليس صواباً فهو مرجوح مرجوح ، وليس له دليل واحد يبلغ الاستدلال به درجة اليقين أو ما يقرب منه من ظنٍ قوي. وهذا ما انتهى إليه بعض الفقهاء المحدثين من أمثال الشيخ عبد الوهاب خلاف فى كتابه المعروف بـ «السياسة الشرعية» .

* *

(١) الجزء الثانى ص ٣٥١

* وقفة مع أدلة الفريق الثاني :

الفريق الثاني هو القائل بأن علاقة المسلمين بغيرهم هى علاقة سلام فى الأصل لا علاقة حرب، وقد ذكرنا بعضاً من أدلتهم فى ما مضى .

وكل أدلتهم سلمت من أى قدح فى الاستدلال بها، اللهم إلا قولاً بالنسخ غير مجمع عليه .

فمن قائل: إن آيـــــة: ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[1] نسخت كل آيات الموادعة والمهادنة .

ومن قائل : إن آية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ .. ﴾[2] هى التى نسخت .

وقائل إن : آية: ﴿ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ .. ﴾[3] هى الناسخة لآيات الموادعة والمهادنة .

وخالف بعضهم فقال: إن هذه الآيات منسوخة ومما نسخها قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾[4] وهذه كلها أقوال اجتهادية ليس فيها إجماع قط .

ثم فى المسألة قول ثالث يذهب إلى عدم النسخ فى أى من أدلة الفريقين. فلا آيات القتال منسوخة، ولا آيات العفو والصلح منسوخة، بل إن كل الآيات معمول بها (محكمة)، كل فيما يختص به، وعلى هذا تكون آيات القتال معمولاً بها إذا حاربنا العدو أو ظاهر من يحاربنا أو طعن فى ديننا طعناً ظاهراً، أو أخرجنا من ديارنا، وتكون آيات الصلح والعفو معمولاً بها إذا جنح العدو للسلام واعتزلنا فلم يقاتلنا .

وهذا هو الصواب الأحق من القول بالنسخ. وقد أشار ابن عطية إلى أن قوله تعالى: ﴿ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ﴾ عند مَن قال إنه نسخ كل آيات الموادعة والمهادنة فى القرآن، فإنه يلزم من هذا القول نسخ مائة آية وأربع عشرة من القرآن[5] .

(١) التوبة : ٣٦ (٢) التوبة : ٧٣ (٣) التوبة : ٥

(٤) محمد : ٤ (٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز :: ١٣٣/٨

وهذا ــ فيما يبدو ــ معنى بعيد، إذ كيف تعزل آية واحدة هذا القدر من الآيات مع إمكان الجمع بين كل هذه الأدلة كما تقدم ، ويحيط بالقول بالنسخ فى هذا الموضوع غموض آخر يجعل الجزم بالنسخ فى أى من النوعين مستحيلاً، وهو ما تراه من تقديم وتأخير بين الآيات التى قيل إن بعضها نسخ الآخر، تقديم وتأخير فى ترتيب الآيات فى السور، وتقديم وتأخير فى النزول، وهذا ملحظ لو تتبعناه لطال بنا الحديث. فنكتفى بمجرد الإشارة إليه، ونخلص من هذا كله إلى أن الأصل فى علاقة المسلمين بغيرهم هى السلام لا الحرب، وقد تواترت الأدلة القولية والعملية على صدق هذا المذهب وصحته .

أما أدلة مَن قالوا: إنها علاقة حرب لا سلام فلم يُسلِّم لهم الاستدلال بالنصوص التى ساقوها. وقد ناقشناها فى إيجاز وبيَّنا درجة الاستدلال بها من القبول والرد، وهذا المذهب ــ : مذهب القول بالعلاقة السلمية ــ هو اللائق بسماحة الإسلام التى سقنا عشرات الأدلة عليها فى كل فرع من فروع هذه الدراسة. فالإسلام هو دين السلام فى هذه الحياة الدنيا، سلام لجميع البشر لاللمسلمين خاصة، فالدماء والحقوق فيه مصونة بصرف النظر عن أى اعتبارات أخرى ترجع إلى الدين أو الجنس أو اللون. لكن شريطة أن لا يعتدى علينا أحد بقول أو فعل، وأن لا ينتهك حرماتنا ومقدساتنا. فإن صنع أحد معنا شيئاً من هذا فالمعاملة بالمثل هى الواجبة .

فإذا وجب قتال العدو، فالإسلام السمح الرحيم يوجه الجنود المسلمين توجيهاً أخلاقياً ليس له فى غير الإسلام مثيل : ﴿ وَقَاتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1] .

فلا نقاتل إلا مَن قاتلنا، ولا نعتدى على من لم يقاتلنا ؛وفى السُّنّة الطاهرة، والفقة الإسلامى أن أصنافاً من قوم الذين يقاتلوننا لا نقتلهم ــ وإن ظفرنا بهم ــ ولا نتعرض لهم بسوء قط وهم : النساء ــ الصبيان ــ الأجير ــ الضعيف ــ

(١) البقرة : ١٩٠

المجنون ـ الراهب ـ المريض. وكل من لم يشترك فى قتالنا. وقد روى أن النبى ﷺ رأى فى إحدى غزواته امرأة مقتولة فأنكر ذلك على مَن قتلها .

هذا بالنسبة للأشخاص، وقد تقدم أن وصايا الخلفاء بعدم التعرض لما يسمى الآن بـ «الأهداف المدنية ـ كالأشجار والماشية » كانت من أبرز ما يوصون به المقاتلين. ضاربين للناس أروع الأمثال فى السماحة والرحمة، ومكارم الأخلاق، ومسك الختام لهذه الدراسة هو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[1] .

والحمد لله فى الأولى، والحمد لله فى الآخرة .

البلد الطيب الأمين : مكة المكرمة :

صبيحة وقفة عرفات ١٤١٣ هـ (الموافق ٣٠ مايو ١٩٩٣م)

عبد العظيم إبراهيم المطعنى

عفا الله عنـــه

* * *

---

(١) البقرة : ٢٠٨

محتويات الكتاب

رقم الصفحة

* * *

كتب للمؤلف

١ ـ خصائص التعبيرالقرآني وسماته البلاغية	مكتبة وهبة
٢ ـ أوروبا في مواجهة الإسلام .. الوسائل والأهداف	مكتبة وهبة
٣ ـ افتراءات المستشرقين ضد الإسلام .. عرض ونقد	مكتبة وهبة
٤ ـ المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين الإجازة والمنع	مكتبة وهبة
٥ ـ الإسلام في مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة	مكتبة وهبة
٦ ـ الفقه الاجتهادي الإسلامي	مكتبة وهبة
٧ ـ سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله والعلاقات الإنسانية	مكتبة وهبة
٨ ـ عقوبة الارتداد عن الدين بين الأدلة الشرعية وشبهات المنكرين	مكتبة وهبة
٩ ـ الفراغ وأزمة التدين عند الشباب المعاصر	دار الأنصار
١٠ ـ مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه	دار الأنصار
١١ ـ تدابير الأمن في الإسلام	دار الأنصار
١٢ ـ من الإمام الشهيد حسن البنا إلى القيادات الإسلامية	دار الأنصار
١٣ ـ قراءات في كتاب أحمر	دار الأنصار
١٤ ـ جريمة العصر أو قصة احتلال المسجد الحرام	دار الأنصار
١٥ ـ التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم	دار الأنصار
١٦ ـ التشبيه البليغ هل يرقى إلى درجة المجاز ؟	دار الأنصار
١٧ ـ الهمزية في مدح خير البرية للإمام البوصيري	دار الأنصار
١٨ ـ أدب الإسلام في الرياسة والسياسة	دار الأنصار
١٩ ـ شرح الوصايا العشر للإمام الشهيد حسن البنا	دار الشروق
٢٠ ـ الجائز والممنوع في الصيام	دار الشروق
٢١ ـ مناسك الحج والعمرة على ضوء المذاهب الأربعة	دار الشروق
٢٢ ـ الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي	دار الوفاء
٢٣ ـ الحكيم في حديثه مع الله ومدرسة المتمردين على الشريعة	دار السلام
٢٤ ـ النهي عن المنكر في مذهب أهل السنة والجماعة	دار الفتح العربي

٢٥ ـ المرأة في عصر الرسالة بين واقعية الإسلام وأوهام المرجفين	دار الفتح العربي
٢٦ ـ البديع من المعاني والألفاظ	مطبعة وهدان
٢٧ ـ من قضايا البلاغة والنقد	دار السلام
٢٨ ـ التبشير العالمي ضد الإسلام	مكتبة النور
٢٩ ـ العلمانية وموقفها من العقيدة والشريعة	مكتبة النور
٣٠ ـ التشبيه والتمثيل بين الخطيب والإمام عبد القاهر	مطبعة السعادة
٣١ ـ من أسرار النظم في القرآن والحديث	مطبعة الرسالة
٣٢ ـ علم البيان	مطبعة الأمانة
٣٣ ـ الخطأ والصواب	دار الفتح العربي

* * *

رقم الايداع : ١٠٠١١ / ٩٣
I.S.B.N 977 - 225 - 037 - 3

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢